المزمور السادس عشر

مُذَهَّبَةٌ لِدَاوُدَ

1اِحْفَظْنِي يَا اللهُ لأَنِّي عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. 2قُلْتُ لِلرَّبِّ: «أَنْتَ سَيِّدِي. خَيْرِي لاَ شَيْءَ غَيْرُكَ. 3الْقِدِّيسُونَ الَّذِينَ فِي الأَرْضِ وَالأَفَاضِلُ كُلُّ مَسَرَّتِي بِهِمْ». 4تَكْثُرُ أَوْجَاعُهُمُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا وَرَاءَ آخَرَ. لاَ أَسْكُبُ سَكَائِبَهُمْ مِنْ دَمٍ وَلاَ أَذْكُرُ أَسْمَاءَهُمْ بِشَفَتَيَّ. 5الرَّبُّ نَصِيبُ قِسْمَتِي وَكَأْسِي. أَنْتَ قَائِضُ قُرْعَتِي. 6حِبَالٌ وَقَعَتْ لِي فِي النُّعَمَاءِ فَالْمِيرَاثُ حَسَنٌ عِنْدِي.

7أُبَارِكُ الرَّبَّ الَّذِي نَصَحَنِي وَأَيْضاً بِاللَّيْلِ تُنْذِرُنِي كُلْيَتَايَ. 8جَعَلْتُ الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ. لأَنَّهُ عَنْ يَمِينِي فَلاَ أَتَزَعْزَعُ. 9لِذَلِكَ فَرِحَ قَلْبِي وَابْتَهَجَتْ رُوحِي. جَسَدِي أَيْضاً يَسْكُنُ مُطْمَئِنّاً. 10لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ. لَنْ تَدَعَ تَقِيَّكَ يَرَى فَسَاداً. 11تُعَرِّفُنِي سَبِيلَ الْحَيَاةِ. أَمَامَكَ شِبَعُ سُرُورٍ. فِي يَمِينِكَ نِعَمٌ إِلَى الأَبَدِ.

أمامك شبع سرور

هذا المزمور مذهَّبة لداود، بمعنى أن محتويات المزمور من ذهب. وتحمل خمسة مزامير أخرى (56-60) نفس هذا العنوان. وهو مزمور فرح، عامر بالإيمان والرجاء والأمل. فيه تطلُّع مفرِّح إلى الله، نتيجة الشركة معه. وكتب داود هذا المزمور غالباً عندما كان شاول يطارده، ووقع شاول في يده فغفر داود له. ووعد شاول أن يمتنع عن مطاردة داود، لكنه نكث وعده، وعاد يطارده من جديد. ووقع في يد داود مرة ثانية، فغفر له ثانيةً وكلّمه، فعرف شاول صوته، وقال: «أهذا هو صوتك يا ابني داود؟» فقال داود: «إنه صوتي يا سيدي الملك.. لماذا يسعى سيدي وراء عبده، لأني ماذا عملتُ، وأي شر بيدي؟.. إن كان الرب قد أهاجك ضدي فليشتَمَّ تقدمةً (بمعنى: يرضى عن داود). وإن كان بنو الناس فليكونوا ملعونين أمام الرب (لماذا؟) لأنهم قد طردوني اليوم من الانضمام إلى نصيب الرب قائلين: اذهب اعبُد آلهةً أخرى» (1صم 26:17-19). بسبب المطاردة حُرِم داود من العبادة، ولكن الله عوَّضه فقال: «الرب نصيب قسمتي وكأسي. أنت قابض قرعتي. حبالٌ وقعت لي في النُّعماء، فالميراث حسن عندي» (مز 16:5 و6).هذا المزمور نبوّة عن المسيح المقام، اقتبس الرسول بطرس منه الآية 8 في أعمال 2: 25 وقال: «لأن داود يقول فيه: كنتُ أرى الرب أمامي في كل حين، أنه عن يميني لكي لا أتزعزع». كما اقتبس منه الرسول بولس آية 10 في أعمال 13: 35-39 وقال: «لن تدع قدوسك يرى فساداً. لأن داود بعدما خدم جيله بمشورة الله رقد وانضَّم إلى آبائه، ورأى فساداً. وأما الذي أقامه الله فلم يرَ فساداً. فليكن معلوماً عندكم أيها الرجال الإخوة، أنه بهذا (بالمسيح المقام) يُنادى لكم بغفران الخطايا، وبهذا يتبرر كل مَن يؤمن».

في هذا المزمور نجد:

أولاً - علاقة المرنم بالله (آيتا 1، 2)

ثانياً - علاقة المرنم بالناس، من أبرار وأشرار (آيتا 3، 4)

ثالثاً - المرنم وحياته على الأرض (آيات 5-8)

رابعاً - المرنم وحياته في الأبدية (آيتا 9، 10)

خامساً - بركة المرنم الثلاثية (آية 11)

أولاً - علاقة المرنم باللّه

(آيتا 1، 2)

يبدأ المرنم مزموره بالحديث عن علاقته بالرب، ويدعوه ليحفظه، لا من خطر محدَّد، بل من كل خطر يمكن أن يحل به، سواء شعر به قادماً عليه أم لم يشعر. إنه يدرك ضعفه وحجم الخطورة المحدقة به من الملك شاول، ولذلك يلقي اتكاله على اللّه، ويوضح علاقته الخاصة بالرب.

1 - اللّه محل الاعتماد: «احفظني يا اللّه لأني عليك توكلت» (آية 1). والاتكال يعني أن يعتمد الإنسان مطمئناً على من يضع ثقته فيه، كما يستسلم المريض لمشرط الجراح، أو يعطي إنسان توكيلاً عاماً لمحامٍ، لثقته في الاثنين. صلى المسيح من أجل المؤمنين: «أيها الآب القدوس، احفظهم في اسمك الذين أعطيتني» (يو 17: 11) والمؤمن يدرك أن «اسم الرب برج (قلعة) حصين، يركض إليه الصديق ويتمنَّع» (أم 18: 10). اللّه وحده برج الخلاص والنجاة، يدعوه المؤمن: «ميِّز مراحمك يا مخلّص المتّكلين عليك بيمينك من المقاومين» (مز 17: 7).

2 - اللّه هو السيّد: «قلت للرب: أنت سيدي» (آية 2أ) وقال: «أعطِ عبدك قوتك وخلّص ابن أمتك» (مز 86: 16) وقال أيضاً: «يا رب إني عبدك، ابن أمتك» (مز 116: 16). ينتمي داود للرب ويُدعى اسم اللّه عليه. هو عبد بمحض اختياره، يقول: «أُحبّ سيدي.. لا أخرج حراً» (خر 21: 5). لأنه عندما يستعبد نفسه للّه يصبح حراً وآمناً ومطمئناً.. واللّه هو سيدنا لأنه خلقنا، وهو مالكنا بحكم أنه اشترانا لنفسه بدم المسيح. ومعرفتنا بهاتين الحقيقتين المباركتين تجعلنا نعترف بسيادته على حياتنا لأننا خليقة يديه، ولأننا مفديون بدمه.

3 - اللّه مصدر الخير: «خيري لا شيء غيرك» (آية 2ب). فاللّه نفسه هو خير المرنم، كما أنه يمنح المرنم كل خير. كل ما يتمناه المرنم من خير موجود في اللّه ومعه. فيقول له: «من لي في السماء؟ ومعك لا أريد شيئاً في الأرض» (مز 73: 25). لقد صارت ثقة داود بالرب أسلوب فكر وطريقة حياة كل يوم. يتّجه قلبه إلى اللّه دائماً في وقت الخطر كما في وقت الأمان، كما تتّجه البوصلة للقطب الشمالي، وكما ينجذب الحديد للمغناطيس. يتجه للّه وقت التجربة كما في وقت السلامة، ووقت الخوف كما في وقت السلام. صار اللّه قِبلته الدائمة، يقول له: «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سُررت» (مز 40: 8).

ثانياً - علاقة المرنم بالناس، من أبرار وأشرار

(آيتا 3، 4)

1 - علاقة المرنم بالأبرار: «القديسون الذين في الأرض والأفاضل كل مسرتي بهم» (آية 3) يتّجه المرنم من اللّه في سمائه إلى المؤمنين في أرض اللّه، فيقول: «كل مسرَّتي بهم». هي علاقة سرور بمن يحبون الرب كما يحبه هو. وهي علاقة وحدانية في الروح (أف 4: 3). فإن «كل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً. بهذا نعرف أننا نحب أولاد اللّه إذا أحببنا اللّه وحفظنا وصاياه» (1يو 5: 1، 2).

ويطلق المرنم على الأبرار لقبين: «قديسين» و«أفاضل».

(أ) «**القديسون**»: لأن اللّه دعاهم ليكونوا له مملكة كهنة وأمة مقدسة (خر 19: 6). «قديسون» بمعنى الطاهرون الذين يعيشون «نظير القدوس الذي دعاهم من العالم» فصاروا

قديسين في كل سيرة (1بط 1: 15). ورآهم «قديسين» بمعنى المفرَزون لله، المخصَّصون له، الذين أوقفوا نفوسهم على حبه. ورآهم «قديسين» بمعنى أنهم مختلفون عن غيرهم، لأن الروح القدس فيهم يعطيهم نوعية حياة غير التي في العالم. «بهذا أولاد الله ظاهرون، وأولاد إبليس» (1يو 3: 10). الذي فيهم أعظم من الذي في العالم (1يو 4: 4). ورآهم «قديسين» بمعنى مرتفعون، كما رأى إشعياء العرش الإلهي (إش 6: 1-3) فمستواهم الروحي أعلى من مستوى المحيطين بهم. وتجيء القداسة من عمل المسيح على الصليب لتطهير القلوب «نحن مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح» (عب 10: 10)، ونتيجة لقبول هذا العمل لأجلنا فقد «اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة» (أف 1: 4).

ومع ذلك فقد رآهم «في الأرض» كما صلى المسيح لأجلهم: «لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير» (يو 17: 15) فإنهم يجب أن يكونوا ملح الأرض ونور العالم (مت 5: 13، 14) لكي يكونوا بلا لوم وبسطاء في وسط جيلٍ معوَّج وملتوٍ، يضيئون بينهم كأنوار في العالم، متمسّكين بكلمة الحياة (في 2: 15، 16). فبالرغم من وجودهم وسط أوحال العالم استطاعوا أن يحتفظوا بلقب «القديسين». ونحن اليوم نقدر أن نحيا حياة القداسة في عالم مليء بالشر، لو أن الروح القدس ملك تصرفاتنا، ولو أننا قلنا للرب: «أنت سيدي. خيري لا شيء غيرك».

(ب) «الأفاضل»: وهم النبلاء ذوو السمعة الحسنة، الذين يتحقّق فيهم قول المسيح: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت 5: 16).

لم يقُل المرنم إن مسرته بالأغنياء ولا بالأقوياء، بل بالذين انتموا للرب فسكن قلوبهم، وأعطاهم اسماً صالحاً، لأنه رأى أنهم الأفاضل. وهناك جاذبية خاصة يضعها الروح القدس في قلوب المؤمنين من نحو بعضهم البعض لأن المسيح ساكن فيهم، وهو سيد حياتهم، فينجذبون لبعضهم برُبط المحبة. ولو أن مؤمنين كثيرين لا يقدِّرون بعضهم بعضاً كما يجب، كما أن بعض الطوائف المسيحية تقلل من قيمة غيرها. لكن كل المؤمنين قديسون وأفاضل بسبب مركزهم في المسيح. وهكذا يجب أن نراهم لأن الله يراهم كذلك.

2 - علاقة المرنم بالأشرار: «تكثر أوجاعهم الذين أسرعوا وراء آخر. لا أسكب سكائبهم من دم، ولا أذكر أسماءهم بشفتيَّ» (آية 4). يتكلم عن ضلال الأشرار وعقاب الرب لهم، ثم يعلن مقاطعته لعبادتهم.

(أ) ضلال الأشرار وعقابهم: «تكثر أوجاعهم الذين أسرعوا وراء آخر» الذين يوصفون بالقول: «أما شعبي فقد بَدَلَ مجده بما لا ينفع.. لأن شعبي عمل شرّين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية، لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشقَّقة لا تضبط ماءً» (إر 2: 11، 13). اجتذبتهم مباهج العالم واختطفتهم أوثانه فأسرعوا وراء الضلال، في انحدار خطير يبدد سلامهم الروحي ومصيرهم الأبدي. وبهذا الضلال الروحي ظلموا أنفسهم، فكثرت أوجاعهم. ويصوّر الابن الضال في الكورة البعيدة (لو 15: 11-32) هذه الأوجاع الكثيرة. أولها الحرمان من الحضور الأبوي، ثم الحرمان من البركة الإلهية، ثم الضياع في الأوهام والشرور وخداع الأصحاب المستغلّين. والنهاية الحزينة هي الموت الأبدي.

(ب) مقاطعة المرنم لعبادتهم: «لا أسكب سكائبهم من دم، ولا أذكر أسماءهم بشفتيَّ». ربما يقصد المرنم أنه لا يشترك معهم في عبادتهم الوثنية، فهم يسكبون الدماء على ذبائحهم وهو لا يفعل ذلك. أو ربما يقصد أنهم يقدمون ذبائح لأوثانهم بأيدٍ ملطخة بالدماء، وقد قال الله بفم النبي إشعياء عن أصحاب التقدمات المرفوضة: «من يذبح ثوراً فهو قاتل إنسان. من يذبح شاةً فهو ناحر كلب. من يُصعد تقدمة يُصعد دم خنزير. من أحرق لباناً فهو مبارك وثناً» (إش 66: 3).

أما قوله: «لا أذكر أسماءهم بشفتيَّ» فيعني أنه لا يذكر حتى أسماء أصنامهم. كان داود قد قضى وقتاً هارباً من الملك شاول في البلاد التي تعبد الوثن، ولا بد أنهم دعوه ليطلب من أوثانهم أن تنقذه، معتقدين أنه كان محتاجاً لمساعدتهم. لكنه رفض حتى أن يتلفَّظ باسم وثنهم! ويبدو هذا الكلام سهلاً عندما تكون الظروف حسنة، لكنه يحتاج إلى ولاءٍ ومحبة قويين للرب عندما تكون الظروف سيئة. ولقد كان ولاء داود لله كاملاً ومطلقاً.

ثالثاً - المرنم وحياته على الأرض

(آيات 5-8)

في هذه الآيات الأربع يقول داود إن الرب مُنْيته وحظه ونصيبه، وفي يديه مصيره (آية 5)، وهو الذي يختار ويقسم له، فما أجمل ميراثه! (آية 6). والرب ناصحه الذي يرشده (آية 7)، كما أنه يثبّته فلا يتزعزع (آية 8).

1 - الرب نصيبه: «الرب نصيب قسمتي، وكأسي» (آية 5أ). و«القسمة، والكأس» هما نصيب الإنسان من الطعام والشراب والمسكن. والله يشبع كل احتياجات المؤمن. وهذا ما حدث مع اللاويين، فقد قال الرب لهارون: «لا تنال نصيباً في أرضهم ولا يكون لك قسم في وسطهم» (لماذا) «أنا قسمك ونصيبك في وسط بني إسرائيل» (عدد 18: 20). «لذلك لم يكن للاوي قسمٌ ولا نصيب مع إخوته. الرب هو نصيبه» (تث 10: 9). يقول المرنم: «عطشَت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي. متى أجيء وأتراءى قدام الله!» (مز 42: 2) فقد قال المسيح: «أنا هو خبز الحياة. من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو 6: 35). لذلك يقول المرنم إن الرب «نصيب قسمتي وكأسي» أرتوي منك. أنت حظي في الحياة. أنت تعيّن لي ما أختبره. قد يكون الكأس مراً وقد يكون حلواً. قال عن الحلو: «كأسي ريّا» أي كأسي امتلأ وفاض بالخير (مز 23: 5). أما الكأس المرّ فقال عنها المسيح: «يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (مت 26: 39).

يرى المؤمن أن الرب نصيبه وكأسه فيفرح، لكن ما أكثر من لا يكتفون بما قسمه الله لهم من أنصبة، ويرفضون الكأس التي قدَّمها لهم الرب، فيطلبون أنصبة وكؤوساً أخرى، وهم لا يعلمون أنهم بذلك يظلمون أنفسهم، ولا يُحسِنون الاختيار.

ثم يقول المرنم عن الرب: «قابض قرعتي» (آية 5ب). فالرب يختار نصيب المؤمن ويعطيه له، فلا يسلبه أحدٌ منه. عندما تُلقَى القرعة يختار الرب للمؤمن. يختار له الوظيفة، وشريك الحياة، والظروف الصعبة لينضُج، كما يختار له الظروف السهلة ليشكر ويسبح. في يدي الرب مصير المؤمن، فلا يعيش حياة الصدفة. كل ما يمرّ بنا وكل ما نمرّ به هو بالترتيب الإلهي المسبَّق، وبحسب الحكمة الإلهية العظيمة.

2 - الرب يختار له: «حبالٌ وقعت لي في النُّعماء، فالميراث حسنٌ عندي» (آية 6). كانوا يقسمون الأرض بين الورثة بحبْل القياس. فوقعت حبال ميراث المرنم «في النُّعماء» أي في الأرض المبهجة الخصبة، وفي الأوقات السعيدة. وجاءت الآية في ترجمة حديثة «ما أحلى ما قسمتَ لي! ما أجمل ميراثي!». والذين يختبرون الله يدركون أنه دوماً يختار لهم المكان المناسب والتوقيت المناسب. أحياناً نتذمر لأن الله أعطانا مكاناً لا نريده، أو أنه أعطاه لنا في غير موعده. لكن بعد وقتٍ، عندما نتأمل المعاملة الإلهية نكتشف أنه أعطانا أفضل شيء في أحسن موعد.

3 - الرب ينصحه: «أبارك الرب الذي نصحني» (آية 7أ). يقدم المرنم الشكر لله لأنه دائماً ينصحه ليختار الرب ويتبعه في ثقة ومحبة وطاعة. والمسيح هو «المشير» (إش 9: 6) الذي يقدم أعظم نصيحة. « كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو 8: 14). ويقول الله: «أعلّمك وأرشدك الطريق التي تسلكها. أنصحك. عيني عليك» (مز 32: 8). قال النبي إرميا: «عرفتُ يا رب أنه ليس للإنسان طريقه. ليس لإنسانٍ يمشي أن يهدي خطواته» (إر 10: 23) فما أحوجنا إلى الإرشاد الإلهي! وما أحوجنا إلى طاعة الإرشاد والسلوك فيه.

ويحدث أن الرب يقدم لنا نصيحة فنهملها، فيوبّخنا وتلومنا قلوبنا. ويصف المرنم هذا بقوله: «وأيضاً بالليل تنذرني كليتاي» (آية 7ب). كان القدماء يعتبرون القلوب والكُلى مركز العواطف. والتعبير «تنذرني كليتاي» يعني أن ضميري يؤنّبني. فإذا نصح الرب ولم ينتصح المؤمن، ينبّهه أثناء الليل إلى الخطأ ويوبّخه عليه ويبكّته بعمل الروح القدس فيه! وكلما أصغى المؤمن للرب نال حكمة روحية وفطنة داخلية، وتحقق معه الوعد: «لا يختبئ معلّموك بعد، بل تكون عيناك تريان معلّميك، وأذناك تسمعان كلمة خلفك قائلة: هذه هي الطريق. اسلكوا فيها حينما تميلون إلى اليمين وحينما تميلون إلى اليسار» (إش 30: 20، 21).

4 - الرب يثبّته: «جعلتُ الرب أمامي في كل حين. لأنه عن يميني فلا أتزعزع» (آية 8). بعد كل هذه البركات، هل تظنون أن المرنم يجعل شيئاً أو شخصاً أمامه غير الرب؟ إن الرب «أمامه» يقوده ويهديه. هو النموذج والمثل. والرب «عن يمينه» يضعه في موضع الحماية. والراعي الصالح يحفظ خرافه ويبذل نفسه في سبيل حراستها. له نقول: «يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنا» (يو 6: 68، 69).

رابعاً - المرنم وحياته في الأبدية

(آيتا 9، 10)

يتكلم المرنم عن مستقبله الأبدي بكل رجاء وأمل.

1 - موضوع الأمل: «لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً» (آية 9). امتلأت حياته هنا بحضور الله، فتمتلئ حياته به في الآخرة. وفي هذه الآية يتطلّع المرنم إلى ميراثه الأبدي بسرور وثقة. قلبه فرح، وروحه ابتهجت، وجسده سيودع التراب ويسكن مطمئناً في انتظار القيامة المجيدة.

يخاف كثيرون من الموت، ولكن المؤمن الذي ثبت في الرب يقول مع داود: «جسدي أيضاً يسكن مطمئناً» فالموت بالنسبة له ليس النهاية، لكنه بداية حياة جديدة. قال المسيح: «أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يو 14: 2، 3). الآن نحن مستوطنون في الجسد ومتغرّبون عن الرب، وسيجيء الوقت الذي فيه نتغرّب عن الجسد ونستوطن عند الرب (2كو 5: 6، 8). قال سمعان الشيخ: «الآن تُطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك» (لو 2: 29، 30). لا يخاف المؤمن على جسده من التراب لأنه هيكل الروح القدس. وعند مجيء المسيح ثانيةً سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء (في 3: 21).

2 - سبب الأمل: «لأنك لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع تقيّك يرى فساداً» (آية 10). لم يترك الله جسد المسيح في القبر لأنه قام في اليوم الثالث من بين الأموات، وهو في محبته يسمح للمؤمن أن يقول نفس الكلمات عن آخِرته، فما تحقق للمسيح هو سبب وأساس ما سيتحقق للمؤمن. لقد أنار المسيح لنا الحياة وأنار الخلود بواسطة الإنجيل (2تي 1: 10) وقال المسيح: «إني أنا حي فأنتم ستَحيون» (يو 14: 19). حاضر المؤمن رائع، ولكن مستقبله أروع، وغد المؤمن أفضل من يومه، ومستقبله أفضل من حاضره، لأنه يبني رجاءه على قيامة المسيح ابن داود، التي هي عربون قيامتنا وضمانها.

وكلمات داود في هذا المزمور نبوّة عن قيامة المسيح، لأن داود بعد ما خدم جيله بمشورة الله مات ودُفن، ورأى جسده فساداً. وأما المسيح فقد أقامه الله، ولم يرَ فساداً، وعندما يعود إلى أرضنا يُضرب بالبوق، فيُقام الأموات عديمي فساد (أع 2: 25 و13: 35-38 و1كو 15: 52).

خامساً - بركة المرنم الثلاثية

(آية 11)

كل من يثبت في الرب، ويجعله أمامه في كل حين، يقف الرب عن يمينه فلا يتزعزع، عندها يتحقق معه قول داود: «تعرّفني سبيل الحياة. أمامك شبع سرور. في يمينك نِعم إلى الأبد» (آية 11). وتذكر هذه الآية ثلاث بركات للمؤمن، أولها بركة تغطي ماضيه. وثانيها حاضره، وثالثها بركة لمستقبله:

1 - «سبيل الحياة»: بأن يقوده إلى حياة أُنس عميق بالله، وهي وحدها الجديرة بأن تُسمّى «حياة» لأنها هي التي جاء المسيح ليهبها لمحبّيه «أتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يو 10: 10). فإن حافظ «التعليم هو في طريق الحياة» (أم 10: 17). و«سبيل الحياة» هنا لا يعني السبيل الذي يؤدي للحياة، ولكن السبيل الذي نحيا ونسلك فيه، وهو سبيل البر «في سبيل البر حياة، وفي طريق مسلكه لا موت» (أم 12: 28).

2 - «شِبع سرور»: تجعل الخطية الإنسان يهرب من محضر الله، فيقول: «سمعتُ صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت» (تك 3: 10). يمتزج الحزن بالفرح في حياة البشر، ولكن الرب يحوِّل حزن المؤمن إلى فرح. والذي عرف سبيل الحياة مع الله يشبع فرحاً لأن قلبه التقي يقدر أن يستوعب ذلك الفرح. إنه يشبع بفرح الغفران والتقديس ومعرفة الله والثقة والسلام والطمأنينة. «ومفديّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنُّم، وفرحٌ أبدي على رؤوسهم. ابتهاجٌ وفرحٌ يدركانهم، ويهرب الحزن والتنهُّد» (إش 35: 10).

3 - «نِعمٌ إلى الأبد»: تمتدُّ يمين الرب القوية بالعطاء والسلام. ونِعمهُ أبدية: نعمة التبنّي والغفران والحياة الأبدية. وهذه كلها تبدأ هنا، ولا تنتهي أبداً. صحيحٌ أن هناك نِعماً لا تبقى إلى الأبد. سيأتي يوم يتوقف فيه الجسد عن الأكل، وعن الامتلاك المادي. والرب يعطي أحباءه النعم في هذا الدهر، والنعم في الدهر الآتي.

ما أجمل نهاية هذا المزمور وهو يعلن لنا انتصار المسيح، الذي هو انتصارنا ما دمنا ثابتين فيه. «الله الذي هو غني في الرحمة.. ونحن أمواتٌ بالخطايا أحيانا مع المسيح.. وأقامنا معه، وأجلسنا في السماويات في المسيح يسوع» (أف 2: 4-6).

أيها المؤمنون، أهنئكم لأن الرب يعرّفكم سبيل الحياة. حاضركم رائع.. أمامكم شبع سرور.. مستقبلكم أروع: نِعَم إلى الأبد!

المزمور السابع عشر

صَلاَةٌ لِدَاوُدَ

1اِسْمَعْ يَا رَبُّ لِلْحَقِّ. أَنْصِتْ إِلَى صُرَاخِي. أَصْغِ إِلَى صَلاَتِي مِنْ شَفَتَيْنِ بِلاَ غِشٍّ. 2مِنْ قُدَّامِكَ يَخْرُجُ قَضَائِي. عَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ الْمُسْتَقِيمَاتِ. 3جَرَّبْتَ قَلْبِي. تَعَهَّدْتَهُ لَيْلاً. مَحَّصْتَنِي. لاَ تَجِدُ فِيَّ ذُمُوماً. لاَ يَتَعَدَّى فَمِي. 4مِنْ جِهَةِ أَعْمَالِ النَّاسِ فَبِكَلاَمِ شَفَتَيْكَ أَنَا تَحَفَّظْتُ مِنْ طُرُقِ الْمُعْتَنِفِ. 5تَمَسَّكَتْ خَطَوَاتِي بِآثَارِكَ فَمَا زَلَّتْ قَدَمَايَ.

6أَنَا دَعَوْتُكَ لأَنَّكَ تَسْتَجِيبُ لِي يَا اللهُ. أَمِلْ أُذُنَيْكَ إِلَيَّ. اسْمَعْ كَلاَمِي. 7مَيِّزْ مَرَاحِمَكَ يَا مُخَلِّصَ الْمُتَّكِلِينَ عَلَيْكَ بِيَمِينِكَ مِنَ الْمُقَاوِمِينَ. 8احْفَظْنِي مِثْلَ حَدَقَةِ الْعَيْنِ. بِظِلِّ جَنَاحَيْكَ اسْتُرْنِي 9مِنْ وَجْهِ الأَشْرَارِ الَّذِينَ يُخْرِبُونَنِي أَعْدَائِي بِالنَّفْسِ الَّذِينَ يَكْتَنِفُونَنِي. 10قَلْبَهُمُ السَّمِينَ قَدْ أَغْلَقُوا. بِأَفْوَاهِهِمْ قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْكِبْرِيَاءِ. 11فِي خَطَوَاتِنَا الآنَ قَدْ أَحَاطُوا بِنَا. نَصَبُوا أَعْيُنَهُمْ لِيُزْلِقُونَا إِلَى الأَرْضِ. 12مَثَلُهُ مَثَلُ الأَسَدِ الْقَرِمِ إِلَى الاِفْتِرَاسِ وَكَالشِّبْلِ الْكَامِنِ فِي عَرِيسِهِ.

13قُمْ يَا رَبُّ. تَقَدَّمْهُ. اصْرَعْهُ. نَجِّ نَفْسِي مِنَ الشِّرِّيرِ بِسَيْفِكَ 14مِنَ النَّاسِ بِيَدِكَ يَا رَبُّ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا. نَصِيبُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ. بِذَخَائِرِكَ تَمْلأُ بُطُونَهُمْ. يَشْبَعُونَ أَوْلاَداً وَيَتْرُكُونَ فُضَالَتَهُمْ لأَطْفَالِهِمْ. 15أَمَّا أَنَا فَبِالْبِرِّ أَنْظُرُ وَجْهَكَ. أَشْبَعُ إِذَا اسْتَيْقَظْتُ بِشَبَهِكَ.

عيناك تنظران المستقيمات

هذا واحد من خمسة مزامير تحمل عنوان «صلاة» ثلاثة منها لداود، هي 17، 86، 142. وواحد لموسى هو مزمور 90. ومزمورٌ «لمسكين إذا أعيا» هو 102. ومن نِعم الله علينا أنه يجعل الصعوبات بركة لنا، لأنها تجعلنا نركع صارخين طالبين عونه. لقد أحاط العدو بداود وأصحابه كالأسد القرم المتلهِّف للافتراس (آية 12) فصرخوا إلى الله: «في خطواتنا الآن قد أحاطوا بنا» (آية 11). ولعل مناسبة كتابة المزمور مطاردة شاول لداود إلى برية معون.. وكان داود يفرّ من أمام شاول، وكان شاول ورجاله يحيطون بداود ورجاله ليأخذوهم (1صم 25:23-27).

ومن نِعم الله علينا أن المزامير بركة لنا، لأنها تعلّمنا أن نصلي قائلين: «لك قال قلبي: قلتَ اطلبوا وجهي. وجهك يا رب أطلب» (مز 27: 8). ويصبح شعار حياتنا دائماً «أما أنا فصلاة» (مز 109: 4). ونطيع أمر المسيح: «ينبغي أن يُصلّى في كل حين ولا يُملّ» (لو 18: 1).

فلنطلب من الرب أن تكون الآية الأولى من هذا المزمور شعارنا: «أصغِ إلى صلاتي من شفتين بلا غش» وأن تكون آيته الأخيرة اختبارنا اليومي: «أما أنا فبالبرّ أنظر وجهك. أشبع إذا استيقظت بشَبَهك». فنشبع به وبأفضاله في برية هذه الحياة.

في هذا المزمور نجد:

أولاً - المرنم يطلب العون بسبب براءته (آيات 1-5)

ثانياً - المرنم يطلب العون بسبب شر أعدائه (آيات 6-14)

ثالثاً - المرنم يعلن فرحه بالرب (آية 15)

أولاً - المرنم يطلب العون بسبب براءته

(آيات 1-5)

1 - الرب يسمع للحق: «اسمع يا رب للحق. أنصِت إلى صراخي. أصغ إلى صلاتي من شفتين بلا غشّ» (آية 1). يُسمِع المرنم صوته الضعيف إلى الإله القوي في ثلاث كلمات: اسمع، أنصِت، أصغ. وهو لا يشاء أن تضيع طلباته وسط ضوضاء ظالميه، وهو لا يريد إلا أن يصل صوته إلى قاضيه العادل. فالصلاة «سكب النفس» (1صم 1: 15) وهي «سكب القلب» (مز 62: 8). في هذه الطلبة لا يبني داود دعاءه على برّه الذاتي، ولا على براءته المطلقة من كل شر، فإن مزمور 51 يرينا كيف أسرع معترفاً بخطئه لما عرف به، بسبب حساسية ضميره. ولكنه في الحالة التي يكتب فيها مزموره هذا تحدث عن موقف معيّن كان فيه بلا ذنب، فقد طارده العدو المفتري وهو البريء، فصرخ يطلب النجدة والإنقاذ بدعوى أنه في هذا الموقف بالذات بريء. لم تكن كل حياته بلا خطأ، لكنه هنا كان يمكن أن يقول: «إن راعيتُ إثماً في قلبي لا يستمع لي الرب. لكن قد سمع الله. أصغى إلى صوت صلاتي. مباركٌ الله الذي لم يُبعِد صلاتي ولا رحمته عني» (مز 66: 18-20).. كانت شكوى داود سليمة، لأنه كان على حق. كان يمكن أن يقول: «اقضِ لي يا رب كحقي، ومثل كمالي الذي فيَّ» (مز 7: 8). وهو يعلم أنه يخاطب القاضي العادل بالقول: «جلستَ على الكرسي قاضياً عادلاً» (مز 9: 4).

يصلي المرنم كطفل يصرخ مستنجداً بأبيه. وصلاة البريء لا تستحق القبول في ذاتها، ولكنها تلقَى القبول لأنها موجَّهة إلى الآب المحب والقاضي العادل.

2 - الرب يبرّر: «مِن قدامك يخرج قضائي. عيناك تنظران المستقيمات» (آية 2أ). بهذا يوضح داود أساس موقفه السليم ووقوفه في جانب الحق، فالله هو الذي يوقفه موقف الأبرار. وهناك كلمتان عبريتان للبر في العهد القديم، إحداهما تصف البر أمام الناس، والثانية تصف البر في نظر الله. جاءت الأولى وصفاً لأيوب في القول: «كان هذا الرجل كاملاً ومستقيماً (باراً) يتّقي الله ويحيد عن الشر» (أي 1:1). فقد رأى الناس صلاح أيوب واستقامته وعدالته وبره. أما البر أمام الله فيوصف صاحبه بالقول: «يحمل بركة من عند الرب وبِراً من إله خلاصه» (مز 24: 5). ويقول الرب عن هذا البر: «قريبٌ بري. قد برز خلاصي. وذراعاي يقضيان للشعوب» (إش 51: 5).

قال داود لله: «عيناك تنظران المستقيمات» (آية 2ب) بمعنى الأفعال المستقيمة والناس المستقيمين. ومن هو الإنسان المستقيم إلا الذي يحتمي في كفارة المسيح فيراه الله مقبولاً؟ وكلمة «كفارة» تعني تغطية وستر. قال عنها «طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية ولا في روحه غش» (مز 32: 1، 2). «إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله. متبرّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رو 3: 23، 24). فلنعترف بخطايانا ولنلجأ إلى بر المسيح، لأنه «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (1يو 1: 9). وعندها يمكن أن نقول لله: «عيناك تنظران المستقيمات» معتمدين على بر المسيح.

3 - الرب يمتحن: «جرَّبت قلبي. تعهَّدته ليلاً. محَّصتني. لا تجد فيَّ ذموماً. لا يتعدَّى فمي» (آية 3). عندما أوى المرنم إلى فراشه دارت الأفكار في رأسه، وراجع ما حدث معه خلال اليوم، فرفع وجهه لله في شكر، لأنه حفظه من الشر حتى لا يُتعِبه. لقد فحَصَ الله قلب نبيّه «فإن فاحص القلوب والكلى الله البار.. لأنك جرَّبتنا يا الله. محَصتنا كمحص الفضة.. بالليل تنذرني كليتاي» (مز 7: 9 و66: 10 و16: 7). وكانت نتيجة الفحص سلامة موقف المرنم في كلامه وعمله. وكأن داود يقول لله: «يا رب، أنت تعلم كل شيء. أنت تعرف أني أحبك» (يو 21: 17). «إن لم تُلمنا قلوبنا، فلنا ثقة من نحو الله» (1يو 3: 21). وفحص الله كلمات نبيِّه فوجد أن فمه لا يتعدَّى، مثل الذين «في أفواههم لم يوجد غش، لأنهم بلا عيب قدَّام (أمام) عرش الله» (رؤ 14: 5).

4 - الرب يحمي: «من جهة أعمال الناس، فبكلام شفتيك أنا تحفَّظت من طرق المعتنف (العنيف). تمسَّكَتْ خطواتي بآثارك فما زلَّت قدماي» (آيتا 4، 5). قارن المرنم نفسه بغيره فوجد أنه أطاع الرب ورفض طرق المعتنفين الذين يعاملون الآخرين بقسوة ويؤذون ويدمِّرون، ويقطعون

الطريق ويسفكون الدماء (حز 18: 10). لم يتَّخذ منهم أصدقاء ولا اقتدى بتصرفاتهم، فإن طرقهم عكس طريق الحياة. لقد تبع فكر الحكيم في الأمثال: «باعِد رجلك عن الشر» (أم 4: 27) ونفَّذ النصيحة: «امتنعوا عن كل شبه شر» (1تس 5: 22). وعندما وقف في محضر الرب، وتطهَّر بكلمته قال: «تمسَّكت خطواتي بآثارك فما زلَّت قدماي». فإن كنا نريد عون الرب فلنراقب خطواتنا، فإن ما يزعج المؤمن ليس ما يهاجمه من الخارج، بل انحرافه من الداخل. بكلام الرب يحفظ المرنم نفسه من الشر فلا يخطئ (مز 119: 11) لأن كلمة الله هي «سيف الروح» (أف 6: 17) ومن يتمسك بها يُقال له: «كتبتُ إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء، وكلمة الله ثابتة فيكم، وقد غلبتم الشرير» (1يو 2: 4).

ثانياً - المرنم يطلب العون بسبب شر أعدائه

(آيات 6-14)

1 - الرب هو المنقذ الوحيد: «أنا دعوتك لأنك تستجيب لي يا الله. أمِل أذنيك إليّ. اسمع كلامي. ميِّز مراحمك يا مخلِّص المتكلين عليك بيمينك من المقاومين. احفظني مثل حدقة العين. بظل جناحيك استرني» (آيات 6-8). جميل أن نلجأ إلى الله لأننا اختبرنا أمانته وصلاحه ومحبته، وعندما طلبناه استجابنا. «في يوم دعوتك أجبتني. شجعتني قوة في نفسي» (مز 138: 3). وهذا الإله المستجيب يستجيب دوماً لأنه لا يتغير، ولأن احتياجاتنا دائمة، لذلك نقول: «أمِل أذنيك إليَّ. اسمع كلامي». وجميل أن نكون من أسرة مؤمنة، ونفتخر أننا النسل الروحي لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فهذا يعني أن لنا تراثاً عميقاً في استجابة الصلاة. فإذا لم يكن لنا التراث الروحي في أسرتنا، فيمكننا بنعمة الله أن نبدأ هذا التراث في عائلتنا اليوم. قُل له: «وابدأن فيَّ أنا».

ثم يقول المرنم: «ميِّز مراحمك يا مخلِّص المتكلين عليك بيمينك من المقاومين» (آية 7) فهو يطلب تدخُّل الرحمة الإلهية تدخُّلاً خاصاً متميزاً لأن احتياجه عظيم، والقوة الإلهية أعظم. إنها اليمين المقتدرة الحكيمة المختبرة القوية القريبة دائماً. «ميِّز مراحمك» للعقل فينجو من الجهل، وللقلب فتنتعش ثقته، وللفكر فتتبدَّد مخاوفه. ولا بد أن يميِّز الله مراحمه بأن يظهرها ساعة الاحتياج إليها، فهو مخلِّص المتَّكلين عليه في الماضي والحاضر والمستقبل.

وجميل أن نلاحظ في هذه الصلاة تركيزها على المحبة الإلهية قبل التركيز على شر الأعداء. ولو تبعنا هذا الاتجاه السليم نتعلم أن لا نركز صلاتنا على المشكلة، بل نُبعد أفكارنا عن الصعوبة، وننظر إلى رئيس إيماننا ومكمِّله، وهو يعالج مشاكلنا بمحبته وقوته.

ثم يقول المرنم: «احفظني مثل حدقة العين» (آية 8أ). عندما نطلب طلباً كبيراً نطلبه من شخص نثق فيه كثيراً، ونثق أن يُعزّنا كثيراً. وكلما أدركت أن لك مكانة كبيرة عند الرب رفّعت طلبك إلى فوق. ويطلب المرنم أن يعتبره الله مثل «حدقة العين» وهي الأرقّ والأغلى، فيعاملونها بكل العناية والحرص. ولا شك أن داود كان يتذكر كلمات موسى للشعب وهو يشرح لهم اختبارات البرية في صحراء سيناء القاحلة مدة أربعين سنة، فقال لهم: «أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه» (تث 32: 10). صحيح أن «من يمسُّكم يمس حدقة عينه» (زك 2: 8).

ويعبّر المرنم عن ثقته في محبة الله له فيقول: «بظل جناحيك استُرني» (آية 8ب). وهو تعبير جميل عن عناية الأم بصغارها، كما تفعل الدجاجة (مت 23: 37). «ما أكرم رحمتك يا الله! فبنو

البشر في ظل جناحيك يحتمون» (مز 36: 7). «لأنه بك احتمت نفسي، وبظل جناحيك أحتمي إلى أن تعبر المصائب» (مز 57: 1) «لأنك كنت عوناً لي، وبظل جناحيك أبتهج» (مز 63: 7).

2 - أعداء المرنم أردياء قساة: (آيات 9-12).

إنهم «يخربون» ويدمرون الجسد، وهم «يكتنفون» ويحيطون بنفس المرنم ليحيا في رعب. وهم غليظو القلب بلا رحمة «قلبهم السمين قد أغلقوا». وكلامهم يوضح كبرياءهم. وهم يتابعونه حيث يذهب، ويراقبونه عن قُرب ليُسقِطوه أرضاً. إنهم مثل الأسد القرم المتلهّف للافتراس. وكالشبل الرابض الكامن في عريسه (عرينه) حيث يختبئ. إنهم يرتكبون ما يرتكبه رئيسهم «لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو» (1بط 5: 8). وهم لا يهاجمون المرنم وحده، بل كل جماعة الرب، لذلك يقول المرنم «يخربونني» (آية 9) و«ليزلقونا» (آية 11).

ولما كان المرنم متأكداً من أن الرب هو منقذه الوحيد، وواثقاً من عنايته به، ومن حمايته له، يتّجه إليه بكل قلبه، صارخاً إليه من خطورة الأعداء المحيطين به، والذين يريدون أن يفترسوه، وقد خلت قلوبهم من الرحمة وامتلأت بالشر.

3 - أعداء المرنم ينكرون فضل اللّه: «قُم يا رب. تقدَّمه. اصرعهُ. نجِّ نفسي من الشرير بسيفك. من الناس (الذين صنعتهم) بيدك يا رب، من أهل الدنيا (ومنحتهم) نصيبهم في حياتهم. بذخائرك (بخيرك) تملأ بطونهم» (آيتا 13، 14). «قُم يا رب» لتواجه العدو. و«تقدمّه» ليرى أن اللّه هو القوي والأعلى. و«اصرعه» كما يصرع الأسد الفريسة. و«نجِّ نفسي من الشرير بسيفك» الذي هو كلمتك، فإنك تقول فيكون وتأمر فيصير، وكلمتك تنجي المرنم من القلق والخوف والخطر. في مرات كثيرة يظن الشرير أنه متقدم وأنه يملك زمام الموقف. ألم يكن شاول يقود جيشاً ضد شخص واحد هو داود؟ لكن الرب هو الذي يتقدّم المؤمن، فإن ظن الشرير أنه شيء فسرعان ما سيكتشف أنه ليس شيئاً.

«بذخائرك (بخيرك) تملأ بطونهم» ومع ذلك فقد ابتعدوا عن الحق، وامتلأت نفوسهم بمحبة العالم. إنهم في الكورة البعيدة عن اللّه، يبذِّرون ما أعطاه لهم بعيش مسرف، ولا يريدون أن يعيشوا معه، ويرفضون الرجوع إليه تائبين. يأكلون خيراته وينكرون سلطانه! «القائلين للّه: ابعُد عنا. وماذا يفعل القدير لهم، وهو قد ملأ بيوتهم خيراً؟» (أي 22: 17، 18). قال المسيح: «فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين. ويمطر على الأبرار والظالمين» (مت 5: 45). ويقول الرسول بولس: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته. غير عالم أن لطف اللّه إنما يقتادك إلى التوبة؟» (رو 2: 4).

ثالثاً - المرنم يعلن فرحه بالرب

(آية 15)

كان المرنم واثقاً من محبة اللّه له، فيعلن فرحه به هنا على الأرض، وفي الأبدية:

1 - يعلن فرحه بالرب هنا على الأرض: «أما أنا فبالبر أنظر وجهك» (آية 15أ). ما أعظم الفرق بين من يحب الرب ومن يبتعد عنه، فالخطية تحجب وجه اللّه عنا. لكن عندما يبررنا المسيح ننظر وجهه، وتتحقق فينا كلمته: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون اللّه» (مت 5: 8). لأنه «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع اللّه بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد اللّه» (رو 5: 1، 2).

وما أبعد الفرق بين مصير المؤمن المضطهَد ومصير الشرير المضطهِد، فالمؤمن ينال نصيبه من عند الرب، وفي حضرته الكريمة في البيت الأبدي. أما الشرير فخيراته في حياته الأرضية فقط، أما نهايته فهلاك أبدي. ويقارن المرنم بين تطلعاته الروحية وتطلعات أعدائه، دون أن يشكو من

نجاحهم الدنيوي، لأنه يرى أن أعظم الخير هو أن ينظر وجه الله، وينتظر رضاه، لأن البر الذي ناله من الله يعطيه الانتماء إليه، بينما الخطية تفصله عنه. تمتع موسى بالله فقال الله عنه: «فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه، لا بالألغاز. وشبه الرب يعاين» (عدد 12: 8).

2 - يعلن فرحه بالرب في الأبدية: «أشبع إذا استيقظت بشبهك» (آية 15ب). كأن المصائب التي عبرت به ليلٌ طويل، أفاق منه ليشبع بشبَه الرب، بمعنى تجديد العلاقة به، فيقول: «استيقظت وأنا بعد معك» (مز 139: 8). إن وجوده في محضر الله اختبار حي، وهو حقيقة لا وهم. وسيجيء يومٌ ينتقل فيه من هذه الحياة الدنيا إلى الأبدية السعيدة، فيُدفَن جسده في القبر بانتظار مجيء المسيح ثانية إلى أرضنا ليقيم الأموات. وهذا الانتقال يُسمى «نوماً» يستيقظ المؤمن بعده إلى وجود مضيء في حضرة الرب، فيقول: «أشبع إذا استيقظتُ بشبهك».

ونحن اليوم نقرأ كلمات المرنم في نور العهد الجديد، فنرى تحقيقها في قول الرسول: «لأن فيه (إنجيل المسيح) مُعلَنٌ برُّ الله بإيمانٍ، لإيمانٍ. كما هو مكتوب: أما البار فبالإيمان يحيا» (رو 1: 17). فالإنجيل هو إعلان طريق الخلاص. كما أنها تحققت في تجسّد المسيح المخلّص، حتى أن كل من يراه يرى الآب (يو 14: 9). وستتحقَّق هذه الكلمات بالكامل عند مجيء المسيح ثانية، «نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (1يو 3: 2). «وهم سينظرون وجهه، واسمه على جباههم» (رؤ 22: 4). نعم سيجيء المسيح، وعندها «يغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء» (في 3: 21).

ماذا تريد أن تكون؟ هل «بذخائر تملأ بطنك» فتكون الحياة الدنيا أقصى مُناك؟ أم بالبر تنظر وجهه، فتشبع إذا استيقظتَ بشبهه؟.. اختر الحياة فتحيا.

المزمور الثامن عشر

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. لِعَبْدِ الرَّبِّ دَاوُدَ الَّذِي كَلَّمَ الرَّبَّ بِكَلاَمِ هَذَا النَّشِيدِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَنْقَذَهُ فِيهِ الرَّبُّ مِنْ أَيْدِي كُلِّ أَعْدَائِهِ وَمِنْ يَدِ شَاوُلَ. فَقَالَ:

1أُحِبُّكَ يَا رَبُّ يَا قُوَّتِي. 2الرَّبُّ صَخْرَتِي وَحِصْنِي وَمُنْقِذِي. إِلَهِي صَخْرَتِي بِهِ أَحْتَمِي. تُرْسِي وَقَرْنُ خَلاَصِي وَمَلْجَإِي. 3أَدْعُو الرَّبَّ الْحَمِيدَ فَأَتَخَلَّصُ مِنْ أَعْدَائِي. 4اكْتَنَفَتْنِي حِبَالُ الْمَوْتِ وَسُيُولُ الْهَلاَكِ أَفْزَعَتْنِي. 5حِبَالُ الْهَاوِيَةِ حَاقَتْ بِي. أَشْرَاكُ الْمَوْتِ انْتَشَبَتْ بِي. 6فِي ضِيقِي دَعَوْتُ الرَّبَّ وَإِلَهِي صَرَخْتُ فَسَمِعَ مِنْ هَيْكَلِهِ صَوْتِي وَصُرَاخِي قُدَّامَهُ دَخَلَ أُذُنَيْهِ. 7فَارْتَجَّتِ الأَرْضُ وَارْتَعَشَتْ أُسُسُ الْجِبَالِ. ارْتَعَدَتْ وَارْتَجَّتْ لأَنَّهُ غَضِبَ. 8صَعِدَ دُخَانٌ مِنْ أَنْفِهِ وَنَارٌ مِنْ فَمِهِ أَكَلَتْ. جَمْرٌ اشْتَعَلَتْ مِنْهُ. 9طَأْطَأَ السَّمَاوَاتِ وَنَزَلَ وَضَبَابٌ تَحْتَ رِجْلَيْهِ. 10رَكِبَ عَلَى كَرُوبٍ وَطَارَ وَهَفَّ عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيَاحِ. 11جَعَلَ الظُّلْمَةَ سِتْرَهُ. حَوْلَهُ مِظَلَّتُهُ ضَبَابُ الْمِيَاهِ وَظَلاَمُ الْغَمَامِ. 12مِنَ الشُّعَاعِ قُدَّامَهُ عَبَرَتْ سُحُبُهُ. بَرَدٌ وَجَمْرُ نَارٍ. 13أَرْعَدَ الرَّبُّ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْعَلِيُّ أَعْطَى صَوْتَهُ بَرَداً وَجَمْرَ نَارٍ. 14أَرْسَلَ سِهَامَهُ فَشَتَّتَهُمْ وَبُرُوقاً كَثِيرَةً فَأَزْعَجَهُمْ 15فَظَهَرَتْ أَعْمَاقُ الْمِيَاهِ وَانْكَشَفَتْ أُسُسُ الْمَسْكُونَةِ مِنْ زَجْرِكَ يَا رَبُّ مِنْ نَسَمَةِ رِيحِ أَنْفِكَ. 16أَرْسَلَ مِنَ الْعُلَى فَأَخَذَنِي. نَشَلَنِي مِنْ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ. 17أَنْقَذَنِي مِنْ عَدُوِّي الْقَوِيِّ وَمِنْ مُبْغِضِيَّ لأَنَّهُمْ أَقْوَى مِنِّي. 18أَصَابُونِي فِي يَوْمِ بَلِيَّتِي وَكَانَ الرَّبُّ سَنَدِي. 19أَخْرَجَنِي إِلَى الرُّحْبِ. خَلَّصَنِي لأَنَّهُ سُرَّ بِي. 20يُكَافِئُنِي الرَّبُّ حَسَبَ بِرِّي. حَسَبَ طَهَارَةِ يَدَيَّ يَرُدُّ لِي. 21لأَنِّي حَفِظْتُ طُرُقَ الرَّبِّ وَلَمْ أَعْصَ إِلَهِي. 22لأَنَّ جَمِيعَ أَحْكَامِهِ أَمَامِي وَفَرَائِضَهُ لَمْ أُبْعِدْهَا عَنْ نَفْسِي. 23وَأَكُونُ كَامِلاً مَعَهُ وَأَتَحَفَّظُ مِنْ إِثْمِي. 24فَيَرُدُّ الرَّبُّ لِي كَبِرِّي وَكَطَهَارَةِ يَدَيَّ أَمَامَ عَيْنَيْهِ.

25مَعَ الرَّحِيمِ تَكُونُ رَحِيماً. مَعَ الرَّجُلِ الْكَامِلِ تَكُونُ كَامِلاً. 26مَعَ الطَّاهِرِ تَكُونُ طَاهِراً. وَمَعَ الأَعْوِجِ تَكُونُ مُلْتَوِياً. 27لأَنَّكَ أَنْتَ تُخَلِّصُ الشَّعْبَ الْبَائِسَ وَالأَعْيُنُ الْمُرْتَفِعَةُ تَضَعُهَا. 28لأَنَّكَ أَنْتَ تُضِيءُ سِرَاجِي. الرَّبُّ إِلهِي يُنِيرُ ظُلْمَتِي. 29لأَنِّي بِكَ اقْتَحَمْتُ جَيْشاً وَبِإِلهِي تَسَوَّرْتُ أَسْوَاراً. 30اَللهُ طَرِيقُهُ كَامِلٌ. قَوْلُ الرَّبِّ نَقِيٌّ. تُرْسٌ هُوَ لِجَمِيعِ الْمُحْتَمِينَ بِهِ. 31لأَنَّهُ مَنْ هُوَ إِلَهٌ غَيْرُ الرَّبِّ! وَمَنْ هُوَ صَخْرَةٌ سِوَى إِلهِنَا! 32الإِلَهُ الَّذِي يُمَنْطِقُنِي بِالْقُوَّةِ وَيُصَيِّرُ طَرِيقِي كَامِلاً. 33الَّذِي يَجْعَلُ رِجْلَيَّ كَالأَيَّلِ وَعَلَى مُرْتَفِعَاتِي يُقِيمُنِي. 34الَّذِي يُعَلِّمُ يَدَيَّ الْقِتَالَ فَتُحْنَى بِذِرَاعِيَّ قَوْسٌ مِنْ نُحَاسٍ. 35وَتَجْعَلُ لِي تُرْسَ خَلاَصِكَ وَيَمِينُكَ تَعْضُدُنِي وَلُطْفُكَ يُعَظِّمُنِي. 36تُوَسِّعُ خُطُوَاتِي تَحْتِي فَلَمْ تَتَقَلْقَلْ عَقِبَايَ. 37أَتْبَعُ أَعْدَائِي فَأُدْرِكُهُمْ وَلاَ أَرْجِعُ حَتَّى أُفْنِيهِمْ. 38أَسْحَقُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ. يَسْقُطُونَ تَحْتَ رِجْلَيَّ. 39تُمَنْطِقُنِي بِقُوَّةٍ لِلْقِتَالِ. تَصْرَعُ تَحْتِي الْقَائِمِينَ عَلَيَّ. 40وَتُعْطِينِي أَقْفِيَةَ أَعْدَائِي وَمُبْغِضِيَّ أُفْنِيهِمْ. 41يَصْرُخُونَ وَلاَ مُخَلِّصَ. إِلَى الرَّبِّ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ. 42فَأَسْحَقُهُمْ كَالْغُبَارِ قُدَّامَ الرِّيحِ. مِثْلَ طِينِ الأَسْوَاقِ أَطْرَحُهُمْ. 43تُنَقِّذُنِي مِنْ مُخَاصَمَاتِ الشَّعْبِ. تَجْعَلُنِي رَأْساً لِلأُمَمِ. شَعْبٌ لَمْ أَعْرِفْهُ يَتَعَبَّدُ لِي. 44مِنْ سَمَاعِ الأُذُنِ يَسْمَعُونَ لِي. بَنُو الْغُرَبَاءِ يَتَذَلَّلُونَ لِي. 45بَنُو الْغُرَبَاءِ يَبْلُونَ وَيَزْحَفُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ. 46حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ وَمُبَارَكٌ صَخْرَتِي وَمُرْتَفِعٌ إِلَهُ خَلاَصِي 47اَلإِلَهُ الْمُنْتَقِمُ لِي وَالَّذِي يُخْضِعُ الشُّعُوبَ تَحْتِي. 48مُنَجِّيَّ مِنْ أَعْدَائِي. رَافِعِي أَيْضاً فَوْقَ الْقَائِمِينَ عَلَيَّ. مِنَ الرَّجُلِ الظَّالِمِ تُنْقِذُنِي. 49لِذَلِكَ أَحْمَدُكَ يَا رَبُّ فِي الأُمَمِ وَأُرَنِّمُ لاِسْمِكَ. 50بُرْجُ خَلاَصٍ لِمَلِكِهِ وَالصَّانِعُ رَحْمَةً لِمَسِيحِهِ لِدَاوُدَ وَنَسْلِهِ إِلَى الأَبَدِ.

أحبك يا رب

كتب داود هذا المزمور بعد أن انتهت متاعبه مع شاول الذي كان يطارده، وبعد أن استراح من أعدائه الذين كانوا يهاجمونه باستمرار، فتولى المملكة في أورشليم. وأرسل الله النبي ناثان ليقول له: «أنا أخذتك من المرعى من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل، وكنتُ معك حيثما توجَّهتَ، وقرضتُ جميع أعدائك من أمامك، وعملت لك اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين في الأرض.. والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتاً» (2صم 7: 8-11). وتأمل داود ماضي حياته، ورأى إنعام الله عليه في كل خطوة خطاها، ففاض قلبه بالشكر للإله المحب الأمين الذين رفعه إلى منصب المُلك، ونصره على أعدائه في الداخل والخارج، فكتب هذا المزمور أولاً ليرتله مع عائلته، كما نقرأه في 2صم 22. ثم نقّحه ليُرتّل في العبادة الجمهورية كما نجده في مزمورنا. ومع أن داود يشكر الله الذي نصّبه ملكاً، إلا أنه يدعو نفسه في أول المزمور «عبد الرب» ولا يقول إنه الملك، فقد حسب عبوديته للرب امتيازاً أكبر من المُلك. وهو نفس اللقب العزيز الذي حصل موسى عليه (يش 2: 1، 13، 15). ولم يكتب داود مزموره ليفتخر بما أعطاه الله له، ولكن ليعترف بفضل الله عليه. وهكذا يجب أن نفعل. هذا المزمور «مسياوي» بمعنى أنه نبوَّة عن السيد المسيح الذي جاء أرضنا فواجه المتاعب ولكنه انتصر عليها، وانتشرت مملكته في العالم. وقد اقتبس كاتب رسالة العبرانيين الآية الثانية من مزمورنا على أنها من كلمات المسيح وهو يقول: «أنا أكون متوكلاً عليه. وأيضاً: ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله» (عب 2: 13). واقتبس الرسول بولس الآية 49 من مزمورنا في رومية 15: 9 «أما الأمم فمجَّدوا الله من أجل الرحمة كما هو مكتوب: من أجل ذلك سأحمدك في الأمم، وأرتل لاسمك». وهذا ما حدث للأمم في عهد المسيح.

وترمز نصرة الملك داود لنصرة المسيا «ابن داود». وهوذا أعظم من داود ههنا! كما أن نصرة المسيح هي نصرة كل واحد من الذين يحبونه وينتمون إليه، كما تقول الآية الأخيرة من المزمور: «برجُ خلاصٍ لملكه، والصانع رحمةً لمسيحه، لداود ونسله إلى الأبد».

في هذا المزمور نجد:

القسم الأول - احتفال بالنجاة المعجزية (آيات 1-24)

القسم الثاني - احتفال بالنصرة الحربية (آيات 25-50)

القسم الأول
احتفال بالنجاة المعجزية
(آيات 1-24)

وفي هذه الآيات نرى المرنم:

1 - يعلن محبته للرب (آيات 1-3)

2 - ينجو نجاةً معجزية (آيات 4-19)

3 - ويتعهَّد بتكريس نفسه للرب (آيات 20-24)

أولاً - المرنم يعلن محبته للرب
(آيات 1-3)

1 - الرب موضوع حب المرنم: «أحبك يا رب يا قوتي» (آية 1). هذه مشاعر طفل يعلنها لأبيه بغاية الرقّة، فالله هو حبه الأول والأقوى والأعظم. وهو بهذا يعلن طاعته وللوصية الأولى والعظمى (مت 22: 36). ويجب أن نرد صدى حبه بحب صادق، فنحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً (1يو 4: 19). عندما تولى داود المُلْك لا بد أنه ذكر عوامل كثيرة ساعدته ليصل إلى العرش، منها محبة الأصدقاء (كيوناثان) الذين عاونوه والذين أحبَّهم، ومنها حرصه على سلامته الشخصية تطبيقاً للوصية: «أحب قريبك كنفسك» (مت 19: 19). ومنها محبته للطبيعة والعالم التي ألهمته كتابة المزامير فرفعت روحه المعنوية. لكنه هنا يبدأ بالأولويات السليمة، فإن الله هو الذي يستحق أول الحب وأعظم الود. وكل حبٍ في القلب لكل مخلوق هو نتيجة حب ذلك القلب لله، فالذي يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً (1يو 5: 1). والمؤمن الصادق هو الذي يحب الله أكثر مما يحب عطايا الله. وهو الذي ينشد قول الرسول بولس: «من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدَّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟.. ولكننا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا. فإني متيقِّنٌ أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبَلة، ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو 8: 35-39).

سأل المسيح تلميذه بطرس: «يا سمعان بن يونا، أتحبني أكثر من هؤلاء؟ قال له: نعم يا رب. أنت تعلم أني أحبك» (يو 21: 15). ولم يكن هذا الحب في إمكان بطرس ولا أحدٍ غير بطرس لولا أن الرب كان «قوته». فقد منح الرب تلاميذه يوم الخمسين قوة الروح القدس، فأحبوا الرب بقوةٍ

من الرب، لأنهم بدونه لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً (أع 1: 8). فالله هو قوة حياتنا وإنجازنا ونصرتنا، بل هو حياتنا ذاتها، وبغيره لا حياة لنا.

2 - الدافع على الحب: (آيتا 2 و3). كمال صفات الله تدفعنا لنحبه، وقد ذكر المرنم في آية 2 سبع صفات، هي عدد الكمال!

(أ) «**صخرتي**»: تذكر داود الصخور والكهوف التي كان يحتمي فيها عندما كان شاول يطارده، فلم يقدر أن ينال منه شيئاً (2صم 23: 25، 28). وهو وصفٌ أورده موسى في نشيده (تث 32: 4، 18، 30، 31، 37). والرب صخرة المؤمن للاختباء والاحتماء، وهو صخرته الذي لا يتغيَّر.

(ب) «**حصني**»: والحصن هو القلعة (1صم 22: 4 و24: 2). وقلعة المؤمن هي اسم الرب، البرج الحصين الذي يركض إليه الصدّيق ويتمنَّع (أم 18: 10). ونحن نحتمي في الرب لما نثبت فيه ويثبت هو فينا.

(ج) «**منقذي**»: وهذا إعلان لثقة أكبر في محبة الرب، فقد يقف المحارب على صخرة ومع ذلك يصيبه سهمٌ قاتل. وربما يكون داخل حصنٍ ولكن الحصن ينهار، أو قد يحتله الأعداء. لكن داود يقول إن الرب هو المنقذ. «إن قامت عليّ حربٌ ففي ذلك أنا مطمئن» (مز 27: 3).

(د) «**إلهي**»: ليس فيه تغيير ولا ظل دوران (يع 1: 17). خالق السماء والأرض، ومع ذلك فإنه في حبه يتنازل ويسمح للمؤمن أن يقول إنه إلهي أنا: «حبيبي لي وأنا له» (نش 2: 16).

(هـ) «**ترسي**»: والترس هو قطعة خشب مغطاة بالجلد، من خلفها سَيْر، يمسكه الجندي بيده اليسرى ليحمي نفسه من الحجارة ومن السهام ومن قطع الفحم المشتعلة التي تُلقى عليه، فيتلقّاها بالترس. والرب هو ترسنا الذي يحمينا من كل ما يلقيه العدو علينا، سواء كان العدو إنساناً أو حيواناً أو شيطاناً.

(و) «**قرن خلاصي**»: ويرمز القرن للقوة التي لا تُقاوم، وكان يُستخدم للهجوم وللدفاع. والرب هو «القرن» الذي يحمي المؤمن، ويبعد عنه الأذى، ويمنحه النصر.

(ز) «**ملجإي**»: والملجأ هو الحصن القائم فوق الجبل، محاطاً بأسوار عالية يصعب على العدو الوصول إليه أو تسلُّق أسواره. وربما يشير إلى المدينة الملجأ التي كان القاتل سهواً يهرب إليها فيلقى الحماية ما دام مقيماً بها.

3 - نتيجة هذا الحب: «أدعو الرب الحميد فأتخلَّص من أعدائي» (آية 3). يضع المرنم ثقته في الرب حاضراً ومستقبلاً، فإن الله نفسه هو المنقذ، يدعوه المرنم ويصلي له بثقة المحب، طالباً الخلاص الدائم من أعدائه. فأينما وحيثما جاء العدو كأسدٍ مهاجم، ينقذ الله عبده، بسبب العلاقة الشخصية الحميمة بينهما. لذلك يدعو المرنم الرب لينقذه من العدو الشرير، ومن اليوم الشرير. فإذا سنحت الفرصة للعدو أن يهاجم المرنم في يوم شرير، فإن العناية الإلهية المتوافرة دائماً تسرع بالخلاص وتمنح الأمان.

ثانياً - نجاة المرنم المعجزية

(آيات 4-19)

1 - الخطورة التي نجا منها: (آيتا 4، 5). نجا المرنم من خطر شديد، يصفه بأربع صور: كأن مشنقةً كانت منصوبةً له، فلا مفرَّ من الموت. وكان كغريقٍ في مياه هادرة لا يملك أن ينجو

منها. وكان كأسيرٍ وقع في شبكة. وكان كمن أُمسك في فخ. فيقول: «اكتنفتني حبال الموت، وسيول الهلاك أفزعتني» (آية 4). أراد شاول أن يهلكه. لكن الله أنقذه من موت محقق. وكان في خطر أن يُدفن: «حبال الهاوية حاقت بي. أشراك الموت انتشبت بي» (آية 5) وكأن حبلاً يشدُّه إلى المقبرة. لكن الله أنقذه. وكلما اشتدَّت الأخطار التي نتعرَّض لها يشتد خلاص الله لنا ويزداد وضوحاً.

2 - الصلاة وسيلة النجاة: «في ضيقي دعوت الرب، وإلى إلهي صرخت. فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه» (آية 6). كانت صلواته دائمة ومستمرة حتى سمعها الله في هيكله السماوي (لم يكن هيكل سليمان قد بُني بعد). أحياناً كان يصلي بصوت هادئ «يدعو». وأحياناً كان يرى الخطر «فيصرخ». وفي الحالتين لم يتضايق الرب منه، بل سمعه وأنقذه. وسواء دعونا الرب بالأنين والهمس، أو صرخنا، فإنه يسمعنا. فالصلاة هي الباب الأعلى المفتوح في السماء، حيث يسكن «إلهي» سامع الصلاة الذي إليه يأتي كل بشر، وخصوصاً أولاده المؤمنون.

3 - وصف النجاة: (آيات 7-19).

(أ) هي بقوة المعين السماوي:

«فارتجّت الأرض وارتعشت أسس الجبال. ارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخانٌ من أنفه ونارٌ من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه. طأطأ السموات ونزل، وضباب تحت رجليه» (آيات 7-9). هذه الصورة الوصفية ترينا أن الله تدخل بطريقة قوية للغاية. لقد تحركت الأشياء الراسخة، فمن فرط قوة الله يتزعزع البيت (أع 4: 31) وتنفتح أبواب السجن (أع 16: 26) وترتجف القلوب القاسية (أع 16: 29). الذي ثبَّت الأرض يُرعب الأرض ويهزُّها، دون أن يهتزَّ لأولاده جفن! وإذ يعلن الله غضبه على مَن يضطهدون شعبه يكون كأن ناراً تخرج من فمه لتهلكهم، وكأن دخان النار صعد من أنفه، لأن من يمسُّهم يمس حدقة عينه! (زك 2: 8) ويتنازل الله لينقذ المؤمن: «طأطأ السماوات ونزل». وما أعظم تنازله لنا في المسيح، ومع ذلك فإن كثيرين لا يدركونه لأن «النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه» (يو 1: 5)! وأما الذين ينير الروح القدس بصائرهم فيرون كيف أن «كل وطاءٍ يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوجُّ مستقيماً والعراقيب سهلاً» (إش 40: 4) لأن الله هو «المتكلم بالبر، العظيم للخلاص» (إش 63: 1).

(ب) هي نجاة سريعة:

«ركب على كروب وطار، وهفَّ على أجنحة الرياح» (آية 10). والكروب هو الملاك الخادم والحارس ذو الجناحين الذي حرس طريق شجرة الحياة (تك 3: 24) وصنع موسى على شكله كروبَيْن وقفا على غطاء تابوت العهد (خر 25: 17-22) للتعبير عن حلول مجد الرب. ورأى النبي حزقيال «كروبيم» (جمع كروب) في محضر الله (حز 10: 1-3). وفي هذه الصورة الشعرية البليغة نرى سرعة الإنقاذ الإلهي وقوته، فالنجاة تسرع «طائرة» تهف على أجنحة الريح، كما جاءت لموسى في السفط (خر 2: 5) وكما جاءت لبطرس المسجون والذي كانت الكنيسة تصلي من أجله، فأرسل الله ملاكه وفتح أبواب السجن وفك قيوده وقاده ليخرجه إلى الرحب (أع 12). والرب بطيء الغضب لكنه سريع الرحمة، لا يشاء أن يهلك أناس، بل أن يتوب الجميع.

(ج) هي نجاة بطريقة سرّية:

«جعل الظلمة ستره، حوله مظلته ضباب المياه وظلام الغمام» (آية 11). كان الجنود يحرسون القبر المختوم بكل حرص، وقد أفادهم رؤساؤهم أن تلاميذ المسيح سيأتون ليسرقوا جسده من قبره. وقام المسيح دون أن يروه، ولا رأوا الملائكة التي جاءت لتحتفي بالقيامة (مت 28). وكان 16 جندياً يحرسون بطرس في السجن، ولم يستطيعوا أن يروا الملاك الذي جاء وأنقذه (أع 12). فللرب طرقه السرِّية لإنقاذ المؤمنين، لا تراها إلا عين الإيمان وحدها، لأنها تميز تعاملات الله التي لا تتضح للعدو. وقد قيل إن الله إلهٌ «مُحتجب» (إش 45: 15) وذلك عن عين العدو! فإن «مجد الله إخفاء الأمر، ومجد الملوك فحص الأمر» (أم 25: 2).

(د) هي نجاة واضحة: «من الشعاع قدامه عبرت سحبه، بَرَدٌ وجمر نار» (آية 12). هذه صورة البرق الذي يصاحب الرعد، فيعلن الصوت والضوء معاً عظمة القوة الإلهية، كما حدث يوم ضرب الله المصريين بضربة البرد (خر 9: 23، 24). لقد جاءت المعونة سراً، ولكن نتيجتها كانت واضحة لكل ذي عينين. وهذا ما حدث مع داود، فقد أراد شاول أن يقتله، ولكن النتيجة النهائية كانت أن شاول قتل نفسه وانتحر، وجلس داود على العرش بعد أن بايعه كل الشعب.

(هـ) هي نجاة تعلن قدرة الله: (آيات 13-18).

وتظهر هذه القدرة في أربعة أمور:

(1) صوت الله: «أرعد الرب من السماوات، والعليُّ أعطى صوته بَرَداً وجمر نار» (آية 13). وجد داود موضوع شكره في ما يرعب الأعداء، لأن معونته في الله العلي ساكن السماء، القدوس اسمه. ففي دينونة الله للشرير عزاء المؤمن. ومن الغريب أن الله يستخدم النقيضين: البَرَد، وجمر النار، فهو سيد الطبيعة!

(2) سلاح الله: «أرسل سهامه فشتَّتهم، وبروقاً كثيرة فأزعجهم» (آية 14). طارت البروق كالسهام القوية فتشتَّت العدو مرتعباً بغير انتظام. «الشمس والقمر وقفا في بروجهما لنور سهامك الطائرة، للمعان برق مجدك» (حب 3: 11).

(3) قوة الله: «فظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة من زجرك يا رب، من نسمة ريح أنفك» (آية 15). تراجعت مياه البحر الأحمر، ومياه نهر الأردن، فظهرت الأرض! «بريح أنفك تراكمت المياه. انتصبت المياه الجارية كرابية. تجمدت اللجج في قلب البحر» (خر 15: 8). كان المصريون يملكون أحدث تكنولوجيا عالم ذلك الوقت، وكان بنو إسرائيل جماعة من المستضعفين الذين لا حماية لهم، وتدخَّلت العناية السماوية لتشق البحر، لأن الله يحمي جماعة المؤمنين.

(4) إنقاذ الله: «أرسل من العُلى فأخذني. نشلني من مياه كثيرة. أنقذني من عدوي القوي ومن مبغضيّ لأنهم أقوى مني. أصابوني في يوم بليتي. وكان الرب سندي» (آيات 16-18). والسند هو العكاز الذي يستند عليه المتعَب والضعيف الذي لا يقوى على الوقوف طويلاً.

(و) اكتمال معونته: «أخرجني إلى الرُّحب. خلّصني لأنه سُرَّ بي» (آية 19). النعمة المجانية هي أساس كل تعاملات الله مع شعبه. لا يترك الرب المؤمن حتى يمتِّعه بالخلاص الكامل. هذا اختبار المؤمنين في كل عصر. اختبره يوسف لما خرج من السجن إلى القصر، واختبره داود لما خرج من مغارة عدلام إلى العرش، واختبره بطرس لما دعاه المسيح ليصيد الناس ويترك صيد السمك! ينقذ الله منتظريه ومحبّيه من ضيق خطاياهم وعذاب ضميرهم بالغفران، كما ينقذهم من كل خطر يهدد أجسادهم. ويتمُّ خلاصهم بفعل يدٍ مُحبَّةٍ، تمتدُّ إليهم من أعلى. يخلّصهم لأنه سُرَّ بهم، فإن لذّاته مع بني آدم (أم 8: 31). وهذا الإنعام يدفعهم للتسليم الكامل له، وهذا ما تعهّد المرنم أن يقوم به كما سنرى في آيات 20-24.

ثالثاً - المرنم يتعهد بتكريس نفسه للرب

(آيات 20-24)

بدأ المرنم عهد تكريسه (آية 20) وختمه بإعلان براءته من اتهامات شاول له (آية 24). كان داود جندياً صالحاً لشاول، وزوج الابنة الأمين، والتابع المخلص، والمسامح الكريم، فعندما وقع

شاول في يده مرتين لم يؤذه، وقال: «حاشا لي من قِبَل الرب أن أمدَّ يدي إلى مسيح الرب» (1صم 24 و26). كان داود بريئاً أمام الناس، لكنه لم يكن بريئاً براءة مطلقة أمام الله، ففي عيني الله ليس أحدٌ صالحاً إلا واحد وهو الله. ولكن داود في هذا الموقف يقول: «يكافئني الرب حسب برّي. حسب طهارة يديَّ يردّ لي.. فيردُّ الرب لي كبرّي، وكطهارة يديَّ أمام عينيه» (آيتا 20، 24).

وشهادة داود لنفسه عن برِّه صادقة، وهي لا تجيء اعتماداً على أعماله الصالحة، ولا تنكر الاعتماد الكامل على نعمة الله، لكنها شهادة لتلك النعمة التي تغيِّر الحياة. والذي لم يختبر نعمة الله المخلِّصة لا يقدر أن يبرر نفسه أمام الناس.

فمن أين يجيء البر؟ الإجابة في قول بولس: «ليس لي برّي الذي من الناموس، بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان» (في 3: 9). «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع، لا بأعمال الناموس. لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما» (غل 2: 16). «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رو 3: 24). إذاً سيكافئ الرب المرنم بحسب البر الذي أعطاه له، فإن الله الذي صنع منه إناءً للكرامة لا بد أن يكرمه (2تي 2: 21).

وبين الآيتين 20، 24 ثلاث آيات تتحدث عن ثلاثة عهود تعهد بها المرنم لله:

1 - عهد طاعة: «لأني حفظت طرق الرب، ولم أعصَ إلهي» (آية 21). قال المسيح: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» (يو 14: 15) وذلك بفضل قوة الروح القدس الساكن في المؤمنين. «حفظت» و«لم أعص» أمران يسيران معاً، فالطاعة مصحوبة بالحرص وعدم العصيان. والمؤمن الذي يحب الرب يحفظ طرق الرب ويطيعه، ولا تكون وصايا الرب ثقيلة عليه بسبب محبته له (1يو 5: 3). «لأن محبة المسيح تحصرنا، إذ نحن نحسب هذا: أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذاً ماتوا» (2كو 5: 14).

2 - عهد درس كلمة الله: «لأن جميع أحكامه أمامي، وفرائضه لم أُبعدها عن نفسي» (آية 22). وضع المرنم كلمة الله نصب عينيه، ونفَّذ قول الحكيم: «اربطها على قلبك دائماً وقلّد بها عنقك» (أم 6: 21). «اربطها على أصابعك. اكتبها على لوح قلبك» (أم 7: 3). كان شعاره: «لا أخزى إذا نظرتُ إلى كل وصاياك.. خبأت كلامك في قلبي لكيلا أخطئ إليك» (مز 119: 6، 11) فاستطاع أن يقول: «جعلت الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع» (مز 16: 8).

3 - عهد نقاوة القلب: «وأكون كاملاً معه. وأتحفَّظ من إثمي» (آية 23). والإثم هو العَوَج، وقد عزم داود أن يكون كاملاً، فشهد الله له: «وجدتُ داود بن يسى رجلاً حسب قلبي، الذي سيصنع كل مشيئتي» (أع 13: 22). لقد تخلَّص من الخطية المحيطة به بسهولة، فردَّ الرب له بحسب برِّه، وطهارة يديه، وأخذه من رعاية الغنم إلى رعاية شعبه.

القسم الثاني
إحتفال بالنصرة الحربية
(آيات 25-50)

في هذا القسم من المزمور نجد:

أولاً - قانون الله الأخلاقي (آيتا 25، 26)

ثانياً - النصرة كلها من عند الرب (آيات 27-36)

ثالثاً - هزيمة العدو الكاملة (آيات 37-42)

رابعاً - سلامة المملكة في الداخل والخارج (آيات 43-45)

أولاً - قانون اللّه الأخلاقي

(آيتا 25، 26)

يوضح المرنم قانوناً أخلاقياً هو أن اللّه يكون رحيماً كاملاً طاهراً مع الإنسان الرحيم الكامل الطاهر. أما مع الأعوج فإن اللّه يكون ملتوياً! فإن اتجاه الإنسان يحدّد اتجاه اللّه من نحوه. ولا بد من وجود صفات صالحة في الإنسان قبل أن يعلن اللّه له رحمته وكماله وقداسته. والمعنى واضح، فما يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً (غل 6: 7). وقال المسيح: «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم» (مت 7: 12). فرحمة اللّه على الرحيم و«طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون» (مت 5: 7). سيوزن كل إنسان بميزان اللّه، ويُكال له بنفس المكيال الذي كال به، ويترك اللّه الأعوج الذي لا يريد أن يتوب لعوجه حتى يدمر نفسه بنفسه، كما قال: «إن سلكتم معي بالخلاف، فإني أنا أسلك معكم بالخلاف، وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم» (لا 26: 23، 24)، وكما قال أليفاز: «الآخذ الحكماء بحيلتهم، فتتهوَّر مشورة المياكرين» (أي 5: 13). وكما قال الحكيم: «لعنة الرب في بيت الشرير، لكنه يبارك مسكن الصدّيقين. كما أنه يستهزئ بالمستهزئين، هكذا يعطي نعمة للمتواضعين» (أم 3: 33، 34). وقال الرسول: «كما لم يستحسنوا أن يُبقوا اللّه في معرفتهم، أسلمهم اللّه إلى ذهنٍ مرفوض، ليفعلوا ما لا يليق» (رو 1: 28). وحاشا اللّه أن يكون ملتوياً، ولكنه يعاقب الأعوج بأن يسلّمه إلى يد من هو أكثر منه عوجاً، كما وقع يعقوب الأعوج، الذي خدع أباه وأخاه، في يد خاله لابان الذي خدعه، ثم في يد أولاده الذين باعوا ابنه يوسف عبداً! ولا شك أن داود يذكر إكرام اللّه له ولسائر الأمناء في الأرض، كما يذكر مصير شاول المؤلم (1صم 31: 1-7) وأبشالوم (2صم 18: 6-9) وأخيتوفل (2صم 17: 23). وفي هذه جميعها كان اللّه رحيماً مع الرحيم، وسقى الأعوج من الكأس التي طالما سقى الأعوج منها الناس!

ثانياً - النصرة كلها من عند الرب

(آيات 27-36)

بعد أن أعلن داود قانون اللّه الأخلاقي، قال إن اختباره الشخصي يبرهن فعالية هذا القانون، فاللّه العلي هو المتسلّط في مملكة الناس، وهو يعطيها لمن يشاء (دا 4: 32). وقد شاء أن يعطيها لداود عبده.

1 - اختبار داود: (آيات 27-30).

(أ) يخلّص اللّه المتواضعين: «لأنك أنت تخلّص الشعب البائس، والأعين المرتفعة تضعها» (آية 27). والبائسون هم الذين تعلموا التواضع في مدرسة الألم والاضطهاد، كما قال اللّه: «أُبقي في وسطك شعباً بائساً ومسكيناً، فيتوكلون على اسم الرب» (صف 3: 12). أما أصحاب العيون المرتفعة فهم المتكبّرون الذين يبغضهم الرب (أم 6: 17) والذين قال عنهم النبي: «توضع عينا تشامخ الإنسان، وتُخفَض رفعة الناس، ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم، فإن لرب الجنود يوماً على كل متعظّم وعالٍ، وعلى كل مرتفعٍ فيوضع» (إش2: 11، 12).

(ب) يضيء الرب حياة المتواضعين: «لأنك أنت تضيء سراجي. الرب إلهي ينير ظلمتي» (آية 28). ولما كان داود متواضعاً، فقد أضاء اللّه سراجه، فلم تطفئه الريح العاتية، وأنار ظلمته بمعنى أنه أدام له الرحمة، ومنحه الحياة الناجحة، فإن «نور الصدّيقين يُفرّح،

وسراج الأشرار ينطفئ» (أم 13: 9). «النور حلوٌ. وخيرٌ للعينين أن تنظرا الشمس» (جا 11: 7). والمسيح هو نور المتواضعين الذين يستضيئون به، فقد قال: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو 8: 12). ولا غرابة فإن «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو 1: 4). ولذلك دُعي داود «سراج إسرائيل» (2صم 22: 17). وحضور الرب مع المؤمن يفيض على حياته نوراً، فيقول للرب: «بنورك نرى نوراً» (مز 36: 9).

(ج) ينصر الله المتواضعين:

يقول المتواضع: «لأني بك اقتحمت جيشاً، وبإلهي تسوَّرتُ أسواراً» (آية 29). ولعل داود يشير إلى احتلاله حصن صهيون من اليبوسيين (2صم 5: 6-10). فبفضل خلاص الله (آية 27) نور الحياة الموهوب له من الله (آية 28) اقتحم داود جيوش أعدائه وانتصر، واعتلى أسوار مدنهم الحصينة. وهذا ما جرى يوم هاجم غُزاة صقلغ وهزمهم (1صم 30) وهو ما جرى يوم نصره الله ليتسور أسوار حصن صهيون، ويطلق عليه اسم «مدينة داود» (2صم 5).

(د) مواعيد الله للمتواضعين:

«الله طريقه كاملٌ. قول الرب نقي. ترسٌ هو لجميع المحتمين به» (آية 30). فبعد سنوات طويلة من اختبار الرب قال موسى في نشيده الأخير: «هو الصخر الكامل صنيعه. إن جميع سبله عدل. إله أمانة لا جور فيه. صدّيقٌ وعادلٌ هو» (تث 32: 4). وهو صاحب الوعود الأمينة «ناموس الرب كامل يردّ النفس. شهادات الرب صادقة تصيّر الجاهل حكيماً. وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب» (مز 19: 7، 8). وقال الحكيم: «كل كلمة من الله نقية. ترسٌ هو للمحتمين به» (أم 30: 5).

2 - انتصار داود: (آيات 31-36).

في هذه الآيات يقول داود إن هناك صفاتٍ حربية لازمة للملك الذي كان يقود شعبه عادةً في ميادين المعارك، وهذه كلها منحة من الله لعبده داود. لقد حفظ الله داود صحيحاً معافى، ومنحه تدريب استعمال المقلاع والسيف والرمح وهو يدافع عن أغنامه، وعلّمه كيف ينتظر إلهه في كل موقف صعب. وكانت هذه كلها اختبارات ومهارات أسندته وهو يرتفع من رعاية الغنم إلى رعاية شعب الله.

(أ) الله هو الإله الوحيد:

«لأنه مَن هو إلهٌ غير الرب! ومَن هو صخرةٌ سوى إلهنا!» (آية 31). ما أكثر أوثان الأمم، ولكنْ واحدٌ وحيد هو الإله الحقيقي، خالق السماء والأرض، الذي قال عنه موسى في نشيده، مقارناً إياه بسائر الأوثان: «لأنه ليس كصخرنا صخرهم، ولو كان أعداؤنا القضاة (حاكمين)» (تث 32: 31). لقد غرق جيش فرعون في البحر، ونجا البائسون، مع أن فرعون كان الحاكم القوي.

(ب) الله هو المنعم الوحيد:

(آيات 32-36).

(1) يزيل العقبات من طريق المؤمن:

«الإله الذي يمنطقني بالقوة، ويصيّر طريقي كاملاً» (آية 32). يقوّي عبده، ويسند وسطه بمنطقة الحق (أف 6: 14) ويهيئ له الطريق بأن يرفع المعاثر والصعاب من أمامه إلى أن يكمل له النصر. طريق الله كامل (آية 30) ويجعل طريق عبده كاملاً، وهو القائل: «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل» (مت 5: 48). وما أبعد الفرق بين الكمال الإلهي، والكمال الإنساني، فكمال الإنسان هو كمال النيّة، أما كمال الله فهو الكمال المطلق.

(2) يقوّي قدمي المؤمن:

«الذي يجعل رجليّ كالإيّل، وعلى مرتفعاتي يقيمني» (آية 33) ليكون كالغزلان السريعة، يتمكن من الكرّ والفرّ دون أن تنزلق قدماه. أعطاه أن يقف في مكان أعلى من كل أعدائه، فتحققت له بركة موسى: «يتذلل لك أعداؤك، وأنت تطأ مرتفعاتهم» (تث 33: 29) ، واختبر أن «الرب السيد قوتي، ويجعل قدميّ كالأيائل، ويمشّيني على مرتفعاتي» (حب 3: 19).

(3) **يقوي يدي المؤمن:** «الذي يعلّم يديّ القتال، فتُحنى بذراعيَّ قوسٌ من نحاس» (آية 34).

(4) **ينقذ المؤمن:** «وتجعل لي ترس خلاصك، ويمينك تعضدني، ولطفك يعظّمني» (آية 35). وترس الخلاص هو ترس الثقة بالرب. وتذكر هذه الآية ثلاثة أشياء ينقذ الله بها داود في حروبه: الخلاص، والمعونة، والعظمة. فالخلاص بحماية ترس الله، والمعونة بإسناد الله، والتعظيم بلطف الله وإحسانه. سيتمكن داود بفضل الله أن يجري بسرعة كبيرة للهجوم والدفاع، وستكون له قوة ثني المعادن، ولكنه لا زال محتاجاً لمن يدافع عنه: إلى الرب ترسه، ومسنده، ومعظّمه، ليشترك مع جدّه الأكبر يعقوب ويقول: «صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعت إلى عبدك» (تك 32: 10).

(5) **يوسِّع للمؤمن:** «توسّع خطواتي تحتي، فلم تتقلقل عقباي» (آية 36). يمنح الله عبده مسافة واسعة تسمح له بحرية الحركة، وقوة كافية ليتقدم بخطوات ثابتة، فيتحقق معه القول: «إذا سرت فلا تضيق خطواتك، وإذا سعيتَ فلا تعثُر» (أم 4: 12). وما أعظم بركة الحرية والانطلاق، دون أن تنزلق أقدامنا.

ثالثاً - هزيمة العدو الكاملة

(آيات 37-42)

هزم المرنم أعداءه بفضل القوة التي منحها الله له، والتي أوضحها (في الآيات 31-36). لقد أسرع وراء أعدائه حتى أدركهم، وبعزيمة قوية لم يرجع إلا بعد فنائهم (آية 37) فسحقهم سحقاً لا قيام لهم من بعده، ساقطين تحت رجليه (آية 38). واستمر الله يمدّه بالقوة حتى صرع الأعداء تحته (آية 39) فأدار الأحياء منهم ظهورهم له مولّين الأدبار (آية 40). وتحقَّق معه وعد الله لموسى: «يجعل الرب أعداءك القائمين عليك منهزمين أمامك. في طريق واحدة يخرجون عليك، وفي سبع طرق يهربون أمامك» (تث 28: 7).

النصرة هي للرب، فشكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين (2كو 2: 14).

وصرخ الأعداء المهزومون ومرارة الهزيمة في أفواههم، يطلبون معونة أصحابهم، ثم معونة أوثانهم، وفي يأس طلبوا معونة الرب، ولكنه لم يسمع لهم (آيتا 41، 42). فتحقق المبدأ الأخلاقي الذي أعلنه المرنم في الآيتين 25، 26. الصلاة سلاح فعّال يلجأ إليه الجميع عند وقوعهم في الخطر، كما لجأ البحارة في سفينة يونان المتَّجهة إلى ترشيش، وهو سامع الصلاة الذي إليه يأتي كل بشر، يستجيب صلاة الخاطئ وهو يتوب قائلاً: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ». ويعطيه من فيض غناه ليعرف أنه يحبه ولا يشاء أن يهلكه. ولكنه في محبته يحذِّر الخطاة بالقول: «أعطوا الرب إلهكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً، وقبلما تعثر أرجلكم على جبال العتمة فتنتظرون نوراً فيجعله.. ظلاماً دامساً» (إر 13: 16).

ونحن اليوم، في نور تعاليم المسيح، نصلي من أجل أعدائنا ليغيّر الله قلوبهم واتجاهاتهم، ونطلب لهم بركة التوبة، ونقول ما قاله رجلٌ تقي: «أنا أقتل أعدائي بأن أجعل منهم أصدقاء لي». وفي الوقت نفسه ندرك أن الجهاد الوحيد المفروض علينا هو مجاهدة النفس التي تشتهي ضد الروح، فنصلب الجسد مع الأهواء والشهوات (غل 5: 24). ونجاهد ضد العالم الحاضر الشرير، فلا نحب العالم ولا الأشياء التي في العالم، الذي تختلف معاييره ومفاهيمه عن المفاهيم الإلهية، ويكون شعارنا: «حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم» (غل 6: 14). ونجاهد ضد مكايد إبليس «لئلا يطمع فينا الشيطان لأننا لا نجهل أفكاره» (2كو 2: 11). قال الرسول بولس: «أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها، هكذا

تُفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح» (2كو 11: 3). فلنجتهد أن تكون أذهاننا تحت سيطرة الروح القدس، و«إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً. نعمة ربنا يسوع المسيح معكم» (رو 16: 20).

رابعاً - تأسيس المملكة في الداخل والخارج

(آيات 43-45)

لاقى داود مقاومة من الداخل والخارج، وأنقذه الرب من كليهما. قال عن مقاومة الداخل: «تنقذني من مخاصمات الشعب» (آية 43أ)، وقال عن مقاومة الخارج: «شعبٌ لم أعرفه يتعبد لي» (آية 43ب).

وقد واجه داود مقاومة الداخل في بدء حكمه، لما كان «بيت شاول» يحتل مكاناً في الحكم (2صم 3: 1). كما واجهها في محاولة الانقلاب الفاشل الذي قام به أبشالوم (2صم 15). ومن هذه جميعها نجّاه الرب. أما مقاومة الخارج فكانت من الشعوب المحيطة به والتي هزمها كلها (2صم 8). وتحقق معه القول: «ولما رأى جميع الملوك عبيد هدر عزر، أنهم انكسروا أمام إسرائيل، صالحوا إسرائيل واستُعبدوا لهم، وخاف أرام أن ينجدوا بني عمون بعد» (2صم 10: 19). ومن هذه جميعها نجّاه الرب، ورفعه رئيساً لشعبه.

خامساً - شكر وتسبيح

(آيات 46-50)

بدأ داود المزمور بإعلان محبته للرب، ووصفه بسبع صفات هي كمال الصفات. وفي كل آيات المزمور سبّح الرب الذي أقامه ملكاً، ومنحه نصرة كاملة في الداخل والخارج. وفي الآيات الخمس الأخيرة يكرر الشكر من جديد في تسبيح ختامي، يذكر فيه سبع صفات عظيمة لله.

1 - «حيٌّ هو الرب»: (آية 46). وهذا بالمفارقة بالأوثان الميتة. لقد اختبر داود صلاح الرب سيد الأرض كلها، وتمَّ معه ما سبق أن قاله يشوع: «بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم، وطَرْداً يطرد من أمامكم الكنعانيين..» (يش 3: 10). الله حيٌّ في ذاته ويمنح الحياة لمن يؤمنون به ويثبتون فيه.

2 - «مبارك صخرتي»: (آية 46). يستحق الإله الذي لا تغيير فيه أن أباركه وأحمده.

3 - «مرتفع إله خلاصي»: (آية 46). فوق كل علو مرتفع ضده وضد مشيئته وضد شعبه. وقد ارتفع المسيح إلى يمين الله، وأخذ اسماً فوق كل اسم. وعندما نجثو له في تسليم وطاعة يرفعنا من سقوط الخطية ويثبت أقدامنا على صخر.

4 - «الإله المنتقم لي»: (آية 47). لم ينتقم داود لنفسه، بل ترك النقمة للرب (رو 12: 19). هذا ما فعله مع شاول (1صم 24: 12) ، ومع نابال (1صم 25: 29)، ومع مقاوميه بعد أن منحه الله المُلك (2صم 4: 8).

5 - «الذي يُخضع الشعوب تحتي»: (آية 47). لا يقولها بكبرياء، بل ليعطي المجد لمن فعل ذلك بواسطة عبده داود.

6 - «مُنجّيَّ من أعدائي»: (آية 48). «الذي نجّانا من موت مثل هذا، وهو ينجّي. الذي لنا رجاءٌ فيه أنه سينجي أيضاً فيما بعد» (2كو 1: 10).

7 - «رافعي أيضاً فوق القائمين عليَّ، مِن الرَّجل الظالم تنقذني»: (آية 48). الإله الرفيع رفع عبده وأنقذه.

من أجل هذه الأسباب كلها قرّر داود أن يرنم ترنيمة شكره بين شعبه وبين الأمم (آية 49) التي اقتبسها الرسول بولس في رو 15: 9 مرنماً للإله الذي هو «برجُ خلاصٍ لملكه» (آية 50). الذي رتل له: «لأنك كنت ملجأ لي، برج قوة من وجه العدو» (مز 61: 3). وهو يشكر الرب الذي يُديم رحمته له ولنسله إلى الأبد.

وقد تحققت هذه النبوة بتمامها في المسيح «لنموِّ رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر، من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا» (إش 9: 7). هو «الصانع رحمة لمسيحه، لداود ونسله إلى الأبد» ليس في «أنساله» بل في نسله الواحد، المسيح (غل 3: 16).

ولهذا المسيح العظيم نخضع ونخشع قائلين مع توما: «ربي وإلهي» (يو 20: 28).

المزمور التاسع عشر

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. 2يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلاَماً، وَلَيْلٌ إِلَى لَيْلٍ يُبْدِي عِلْماً. 3لاَ قَوْلَ وَلاَ كَلاَمَ. لاَ يُسْمَعُ صَوْتُهُمْ. 4فِي كُلِّ الأَرْضِ خَرَجَ مَنْطِقُهُمْ، وَإِلَى أَقْصَى الْمَسْكُونَةِ كَلِمَاتُهُمْ. جَعَلَ لِلشَّمْسِ مَسْكَناً فِيهَا، 5وَهِيَ مِثْلُ الْعَرُوسِ الْخَارِجِ مِنْ حَجَلَتِهِ. يَبْتَهِجُ مِثْلَ الْجَبَّارِ لِلسِّبَاقِ فِي الطَّرِيقِ. 6مِنْ أَقْصَى السَّمَاوَاتِ خُرُوجُهَا، وَمَدَارُهَا إِلَى أَقَاصِيهَا، وَلاَ شَيْءَ يَخْتَفِي مِنْ حَرِّهَا.

7نَامُوسُ الرَّبِّ كَامِلٌ يَرُدُّ النَّفْسَ. شَهَادَاتُ الرَّبِّ صَادِقَةٌ تُصَيِّرُ الْجَاهِلَ حَكِيماً. 8وَصَايَا الرَّبِّ مُسْتَقِيمَةٌ تُفَرِّحُ الْقَلْبَ. أَمْرُ الرَّبِّ طَاهِرٌ يُنِيرُ الْعَيْنَيْنِ. 9خَوْفُ الرَّبِّ نَقِيٌّ ثَابِتٌ إِلَى الأَبَدِ. أَحْكَامُ الرَّبِّ حَقٌّ عَادِلَةٌ كُلُّهَا. 10أَشْهَى مِنَ الذَّهَبِ وَالإِبْرِيزِ الْكَثِيرِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقَطْرِ الشِّهَادِ. 11أَيْضاً عَبْدُكَ يُحَذَّرُ بِهَا، وَفِي حِفْظِهَا ثَوَابٌ عَظِيمٌ. 12اَلسَّهَوَاتُ مَنْ يَشْعُرُ بِهَا! مِنَ الْخَطَايَا الْمُسْتَتِرَةِ أَبْرِئْنِي. 13أَيْضاً مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ احْفَظْ عَبْدَكَ فَلاَ يَتَسَلَّطُوا عَلَيَّ. حِينَئِذٍ أَكُونُ كَامِلاً وَأَتَبَرَّأُ مِنْ ذَنْبٍ عَظِيمٍ. 14لِتَكُنْ أَقْوَالُ فَمِي وَفِكْرُ قَلْبِي مَرْضِيَّةً أَمَامَكَ يَا رَبُّ صَخْرَتِي وَوَلِيِّي.

اللّه يعلن عن ذاته

يؤكد لنا هذا المزمور أن الله دائم الإعلان عن نفسه، ودائم الاتصال بالبشر. لم يكن صامتاً أبداً، لأنه يحب البشر ويتواصل معهم ويكلمهم، فأعلن عن ذاته لهم في الطبيعة: في جمالها ودقّتها ونظامها. وكلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، وسجّل لنا كلماته في الوحي المقدس، في التوراة والمزامير والإنجيل. وهو يكلم البشر عن ذاته في الأتقياء الصالحين، الذين يرى الناس أعمالهم الحسنة فيمجدون أباهم الذي في السماوات. وبفضل إعلان الله عن ذاته في الطبيعة وفي كلمته استعد العالم لمجيء المسيح «الكلمة الحي» والإعلان الكامل. ويمكننا اليوم أن نرى الله في الطبيعة، وفي الكلمة المقدسة، وفي سيرة المؤمنين، ولو أننا نراه بالوضوح الكامل في شخص المسيح كلمة الله، الذي قال: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو 14: 9).

في هذا المزمور نجد:

أولاً - اللّه يعلن عن ذاته في الطبيعة (آيات 1-6)

ثانياً - اللّه يعلن عن ذاته في كلمته المقدسة (آيات 7-11)

ثالثاً - اللّه يعلن عن ذاته في المؤمنين (آيات 12-14)

أولاً - اللّه يعلن عن ذاته في الطبيعة

(آيات 1-6)

يقول المرنم إن الكون كله يتحدث بمجد الله ويخبر بعمل يديه، فالكون معبد ضخم، به وعاظ كثيرون ينادون بكمال الخالق. ولعل أعظم الوعاظ فيه كوكب الشمس. ويقول لنا هؤلاء الوعاظ الشيء الكثير عن عظمة الله وعن محبته. وفي الآيات الست الأولى من هذا المزمور نرى:

1 - موضوع حديث الطبيعة: (آية 1). الطبيعة تمجد الرب وتخبرنا عنه.

(أ) **تتحدث عن مجد الله:** ومجده هو إعلان حضوره بالقوة والبهاء. وهو مجد خاص بجلال ذاته، فيراه الإنسان المخلوق من التراب فيتّقيه.

(ب) **تتحدث عن قوة الله:** «هوذا الذي صنع الجبال، وخلق الريح، وأخبر الإنسان ما هو فكره.. يهوه إله الجنود اسمه.. الذي صنع الثريا والجبار، ويحوّل ظل الموت (الظلام الدامس) صبحاً ويظلم النهار كالليل، الذي يدعو مياه البحر ويصبّها على وجه الأرض، يهوه اسمه» (عا 4: 13 و5: 8). وهذه القوة الخالقة هي القوة الضابطة للكل، فهي تحفظ الكواكب في مداراتها، وتضمن استمرارية الخلق، فكل الأشياء بإرادته كائنة وخُلقت (رؤ 4: 11).

(ج) **تتحدث عن حكمة الله:** فالكون يسير بدقة عجيبة وبانتظام يعجز أي مخلوق عن أن يقوم به. «بكلمة الرب صُنعت السماوات، وبنَسَمة فمه كل جنودها.. لأنه قال فكان، هو أمر فصار» (مز 33: 6، 9). «ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا: من خلق هذه؟ من الذي يُخرج بعدد جندها، يدعو كلها بأسماء. لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يُفقَد أحدٌ» (إش 40: 26).

(د) **تتحدث عن أمانة الله:** فستظل الأرض تنبت عشباً وبقلاً يبزر بزراً، وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه. وسيظل النوران العظيمان يحكمان النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين (تك 1). ويعطي الإله الأمين بركاته الكاملة للناس كل يوم، يوماً بعد يوم.

2 - أوصاف حديث الطبيعة: (آيات 2-6).

(أ) **حديث مستمر:** (آية 2). إنه من يوم إلى يوم ومن ليل إلى ليل، كجوقة ترنيم يتواصل صوتها في تسبيح مستمر «يذيع كلاماً» يدعونا للعمل نهاراً، فنستيقظ لنذهب إلى أعمالنا لنرى يد الرب معنا في كل ما نعمل. «وليل إلى ليل يبدي علماً» يدعونا للراحة عندما نأوي إلى فراشنا ويحفظنا في ظلام الليل، ويعطينا فرصة التأمل في أحداث يومنا لنراجع مواقفنا ونعدّل مسار حياتنا، ولنشكره على أفضاله، ولنعيد تجديد عهودنا في الحياة معه وفي طاعته، ونسلم نفوسنا له ليبدأ معنا يوماً جديداً. فالليل دعوة للراحة والتأمل والاستعداد لما سيأتي علينا. وكلمة «يُبدي» تحمل معنى الحديث الفائض في صمت وطلاقة.

(ب) **حديث هادئ:** (آية 3). «لا قول ولا كلام، لا يُسمع صوتهم» حقاً ما أبلغ الصمت! إنه اللغة التي تفهمها كل الكائنات في كل الكون!

(ج) **حديث شامل:** (آية 4). «في كل الأرض خرج منطقهم، وإلى أقصى المسكونة كلماتهم». ويقول الرسول بولس: «الإيمان بالخبر، والخبر بكلمة الله. لكنني أقول: ألعلّهم لم يسمعوا؟ بلى! إلى جميع الأرض خرج صوتهم، وإلى أقاصي المسكونة أقوالهم» (رو 10: 17، 18).

(د) **حديث واضح:** (آيات 4-6). ويختار المرنم كوكب الشمس باعتبارها الشاهد الأعظم لمجد الله، ويصوّرها كملك بطل، صنع الله له حجلةً، أي خيمة أو غرفة مزيَّنة في السماء، يخرج منها بكامل بهائه كعريس رائع القوة والأناقة والسعادة، وقد ابتهج للسباق في مداره، فيحس به كل البشر، وهو يبعث في أرجاء الأرض الضوء والدفء. وعندما ينظر البشر إلى الشمس يدركون عظمة الذي خلقها، وجمال الذي أوجدها بكل حكمته وقوته وأمانته، إذ لا يختفي شيء من حرِّها.

لكن البشر يحتاجون إلى إعلان أكبر وأوْفَى. لئن كان إعلان الطبيعة كافياً للإنسان قبل السقوط، فإنه ليس كافياً للخاطئ الذي يحتاج إلى المصالحة مع الله، ولذلك عَبَد الإنسان الساقط الضال الشمس والقمر والنجوم. فالخطية تفصل بين الإنسان والله، والإنسان يحتاج إلى من يرشده إلى طريق التصالح مع الله، ولذلك يعلن الله طريق الخلاص لنا عندما يكلمنا في كلمته الموحى بها منه، كما يكلمنا اليوم في المسيح كلمة الله الحي، الذي هو «شمس البر» (ملا 4: 2). «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً كما لوحيد من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً.. ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يو 1: 14، 16).

ثانياً - اللّه يعلن ذاته في كلمته المقدسة

(آيات 7-11)

حدَّثت الطبيعة الإنسان عن عظمة الرب، لكنه ضل وعبد مخلوقات الله، وهو لا يدري كيف يرجع، فأعطاه الله كلمته ليردّه إلى الحق. وفي هذه الآيات الخمس نرى:

1 - أوصاف كلمة اللّه:

(أ) كاملة: «ناموس الرب كامل يردّ النفس» (آية 7أ). والناموس هو الشريعة أو القانون. وهو يقصد به شريعة موسى، وكل شريعة إلهية تدوَّنت في التوراة. وتردُّ الشريعة النفس بطريقتين: بأن تعلن للإنسان نقصه، ثم بأن تشير له إلى طريق الخلاص. عندما يقارن الإنسان حالته بانتظارات الشريعة الكاملة منه يجد أنه ناقص كما أنه أعوج، يحتاج لمن يصلحه. الشريعة تكشف لنا تقصيرنا وضعفنا وعجزنا عن بلوغ ما يريده الله منا، وهذا يلجئنا إلى المراحم الأبدية المتمثِّلة في الكفارة، فتتحقق معنا الكلمة الرسولية «إذاً قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح، لكي نتبرر بالإيمان» (غل 3: 24). ولا يكتفي بر المسيح بإصلاح نفوسنا، لكنه يردُّنا إلى المقام الذي سقطنا منه بسبب الخطية، ويضعنا على أول السير في سبل القداسة.

(ب) صادقة: «شهادات الرب صادقة تصيّر الجاهل حكيماً» (آية 7ب). يسمّيها «شهادة» لأنها تشهد للحق الإلهي الموحى به، وبهذا المعنى يُسمَّى الإنجيل شهادة (1يو 5: 9). وهي شهادة صادقة لا تخدعنا أبداً، ولا تقدم لنا معلومة ناقصة. عندما تجيئنا رسالة من إنسان يجب أن نمتحنها، طاعة للوصية الرسولية: «امتحنوا كل شيء» (1تس 5: 21). أما الرسالة التي تجيئنا من الروح القدس على صفحة الكتاب المقدس فلا تحتاج إلى امتحان، لأن شهادات الرب صادقة وأمينة دوماً. وعندما يتواضع الإنسان ويقبل كلمة الله بوداعة تقدر الكلمة أن تخلِّصه من حماقته (يع 1: 21). كل المواعيد الواردة في هذه الكلمة صادقة وأمينة.

(ج) مستقيمة: «وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب» (آية 8أ). الكلمة كاملة تردُّ الضال، وصادقة تمنحه الحكمة، وتفرح قلب من يقبلها. هي مستقيمة لا التواء فيها أبداً، وهي لا تحابي أحداً، ولا تتغير بتغيُّر الأحوال. عندما نقرأ الكتاب المقدس لا نرى أبداً أمراً يلغي أمراً سبقه أو أمراً سيجيء بعده. إن فكر الله واضح، والكلام الذي يجيء من الله مستقيم كاستقامة الله، لأنه من وحيه، ويقود من يؤمن به إلى حياة الاستقامة.

(د) طاهرة: «أمر الرب طاهر ينير العينين» (آية 8ب) هي طاهرة طهارة من أعطاها. وهي تشوّقنا إلى الحياة الطاهرة وترينا الطريق إليها، لأنها توحي لنا بكل فكر طاهر «لأن الوصية مصباح والشريعة نور، وتوبيخات الأدب طريق الحياة» (أم 6: 23). إنها اللبن العقلي عديم الغش الذي ننمو به (1بط 2: 2). وهي تنير العينين إلى كل ما هو حق وجليل وعادل وطاهر ومُسِر وصيته حسنة (في 4: 8).

(هـ) ثابتة: «خوف الرب نقي، ثابت إلى الأبد» (آية 9أ). يطلق المرنم على كلمة الله «خوف الرب» لأن كلمة الله تجعل قارئها وسامعها يخاف الله ويتّقيه. وهي باقية لأن الله يحافظ عليها. لقد أعطى إعلانه السماوي لينقذ البشر من خطاياهم. ولا بد أن يحافظ على هذا الإعلان ليثبت ويبقى. قال المسيح: «إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (مت 5: 18). ومواعيد الله ثابتة إلى الأبد «لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي تكلم الرب به عنكم» (يش 21: 45 و23: 14). لذلك يجب أن تكون كلمة الله دستورنا والمرشدة لنا في كل وقت.

(و) عادلة: «أحكام الرب حق عادلة كلها» (آية 9ب). ويسميها أحكام لأنها أقوال الرب الفاصلة.وهي حق باستمرار لأنها عادلة. عندما تقول كلمة الله للإنسان: أنت خاطئ، فهو خاطئ فعلاً. وعندما تقول له إن الله ينتظر أن نكون أبراراً، فهذا ما ينتظره الله منا فعلاً. وعندما ترينا أن هذا النقص الموجود فينا لن يستره إلا صليب المسيح ودمه، فهذا قول صادق تماماً.

2 - عمل كلمة الله:

(أ) ترد النفس: «ناموس الرب كامل يرد النفس» (آية 7أ). أليس غريباً أن الذي يرى عظمة الرب في الطبيعة يضل عنه، وأن من ينال حياته وتنفُّسه وطعامه اليومي من عنده يضل عنه؟ «الكل قد زاغوا معاً. فسدوا» (مز 14: 3). لكن الرب في محبته أعطى الإنسان ناموسه الكامل ليرده إلى الصواب، وليعيد إليه الحياة الفضلى بعد أن دمرته الخطية، فيقول: «يا رب إله الجنود، ارجِعنا. أنر بوجهك فنخلص» (مز 80: 19).

(ب) تحكّم الجهّال: «شهادات الرب صادقة تصيّر الجاهل حكيماً» (آية 7ب). والجاهل هو من يفتح عقله وقلبه للخطأ والصواب معاً. لم يغلق قلبه في وجه التعليم الإلهي ولكنه لا يملك القدرة على تطبيق المبادئ السليمة. لمثل هؤلاء «فتح كلامك ينير، يعقّل الجهّال» (مز 119: 130). وهذا ما حدث مع تيموثاوس، الذي كان منذ طفولته يعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكّمه للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع (2تي 3: 15).

ليعطنا الرب الحكمة الروحية لخلاص نفوسنا ويردّنا إليه، ويصيّرنا حكماء، فنتابع حياة التوبة معه، بدون أن نضل كما سبق أن ضللنا. ولتهدنا كلمته القادرة أن تحكّمنا للخلاص بالتوبة والرجوع إليه، وبالحياة التقية النقية التي خلصت من أدران الخطية التي كانت تشوّهها.

(ج) تفرِّح: «وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب» (آية 8أ). من يتبعها يفرح لأنه يصبح من أهل بيت الله، بعد أن يُنعم الله عليه بالتبنّي، وتفرح السماء بخاطئ واحد يتوب، ويصبح التائب أكثر المبتهجين، لأنه نال غفران خطاياه، وأدرك أن الله قبِلَه.

(د) تنير: «أمر الرب طاهر ينير العينين» (آية 8ب). فإنه «سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي» (مز 119: 105). وقال المسيح: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو 8: 12).

3 - أهمية كلمة الله: «أشهى من الذهب والإبريز الكثير، وأحلى من العسل وقطر الشهاد. أيضاً عبدك يُحذَّر بها، وفي حفظها ثواب عظيم» (آيتا 10، 11).

(أ) أهميتها عقلياً: نجري وراءها لأنها «أشهى من الذهب والإبريز الكثير». والإبريز هو الذهب النقي. إن لنا بُعداً روحياً، فإن كان الذهب النقي موضع اهتمامنا لأننا به نحصل على احتياجاتنا المادية، فإن كلمة الله تجتذب تفكيرنا لأنها تشبع البُعد الروحي فينا.

(ب) أهميتها عاطفياً: هي «أحلى من العسل وقطر الشهاد». والشهاد هو الشمع الذي يكوّن فيه النحل العسل. فالإنسان الذي أدرك عقلياً أنه يحتاج للكلمة الإلهية يدرك

بقلبه جمالها ولذتها للنفس، كما قال النبي إرميا: «وُجد كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأني دُعيت باسمك يا رب إله الجنود» (إر 15: 16).

(ج) أهميتها عملياً: «عبدك يُحذَّر بها، وفي حفظها ثواب عظيم». ثوابها هنا على الأرض لأنها تُبعدنا عن الخطية، فنحيا حياة الطهارة. وثوابها أنها تُسمعنا صوت المسيح: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم» (مت 25: 34).

ثالثاً - اللّه يعلن ذاته في المؤمنين

(آيات 12-14)

قال فيلسوفٌ حكيم: «أرى من فوقي السماء بنجومها، وفي داخلي أسمع صوت الضمير يشرح لي القانون الأخلاقي، فتمتلئ نفسي بتوقير يتزايد للخالق العظيم». ولهذا يقول المرنم: «السهوات من يشعر بها! من الخطايا المستترة أبرئني. أيضاً من المتكبرين احفظ عبدك فلا يتسلطوا عليَّ. حينئذ أكون كاملاً وأتبرأ من ذنب عظيم» (آيتا 12، 13). وهذا ما أمرنا المسيح به: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت 5: 16). وعلى كل مؤمن حقيقي أن يكون البشارة الخامسة المقروءة والمسموعة من جميع الناس.

ويطلب المرنم أن يحفظه الرب من ثلاثة أنواع من الخطايا، ويطلب المعونة ليفعل ما يرضيه:

1 - ثلاث خطايا يطلب أن يحفظه اللّه منها:

(أ) الخطايا التي لا يشعر بها: «السهوات من يشعر بها!» (آية 12أ) وهي الخطايا التي يرتكبها دون أن يعرفها. وقد يعرفها الآخرون ويشعرون بها ولكنه هو لا يشعر بها. وقد نصّت شريعة موسى على تقديم ذبيحة خطية «إذا أخطأت نفسٌ سهواً في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها، وعملت واحدة منها» (لا 4: 2). ويطلب المرنم من اللّه أن يُشعره بهذه السهوات ليتوب عنها.

قال الرسول بولس: «لستُ أشعر بشيء في ذاتي، لكني لستُ بذلك مبرَّراً. ولكن الذي يحكم فيَّ هو الرب» (1كو 4: 4). فلم يكن الرسول يشعر بتقصير في القيام بواجباته في خدمة اللّه، ولم يكن ضميره يبكته، لكن عدم شعوره بالخيانة ليس دليلاً على أمانته، فقد يكون في خدمته تقصير لا يعرفه. وهو يطلب من الرب أن يفحص قلبه ليُشعره بما لا يعرفه من عيوبه.

(ب) الخطايا التي شعر هو بها، ولكن غيره لا يشعر بها: «من الخطايا المستترة أبرئني »(آية 12ب). هي خطية يعرفها مرتكبها، لكن المحيطين به لا يرونها. إنها حالة النفاق، عندما يرسم المجتمع لإنسان صورة براقة تختلف عن واقع صورته الأصلية. ومن هذه الخطايا الكبرياء، والغضب المكبوت الذي لا يعبِّر عنه صاحبه بكلمات مسموعة، والتخيلات الدنسة التي لا يصوغها صاحبها في كلمات، والحسد والغيرة اللذين ينهشان داخله. في أواخر أيام حياة القديس أغسطينوس كتب قائمة بالتعهدات التي لم يفِ بها. وكل شخص أمين مع نفسه يصلي للّه طالباً الشفاء من هذه الخطايا المستترة. إنها مرض قاتل في الداخل، لا يشفيه إلا العلاج الإلهي.

(ج) الخطايا المتسلطة عليه والتي يعرفها: «أيضاً من المتكبرين احفظ عبدك فلا يتسلطوا عليَّ» (آية 13أ). و«المتكبرون» نوعان: الأشرار الذين يُجبرون المؤمن ليخطئ، أو الشر الذي يسيطر على الإنسان فلا يقدر أن ينجو منه ولا أن ينتصر عليه. الشرير والشر هما المتكبران المتجبران على الإنسان، اللذان يُسقطانه ليفعل ما لا يريد أن يفعله،

وليعجز عن القيام بما يريد أن يقوم به. ويطلب المرنم من الرب أن يحفظه من «المتكبرين» لأن شريعة موسى لم تكن تقبل كفارة عن خطية المتكبِّر الذي يتحدَّى إرادة الله.

2 - يطلب المرنم أن يعينه الله ليفعل ما يرضيه: «لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضيَّة أمامك يا رب، صخرتي ووليّي» (آية 14). والمرنم يعتبر صلاته، سواء كانت في سرّه أو علانية، كذبيحة يقدمها الله: «لتستقِم صلاتي كالبخور قدامك. ليكن رفع يديَّ كذبيحة مسائية» (مز 141: 2). وقد أمر النبي هوشع الشعب أن يصلّوا قائلين: «قولوا له: ارفع كل إثمٍ واقبل حسناً، فنقدم عجول شفاهنا» (هو 14: 2). في هذه الصلاة يطلب المرنم رضى الرب عن أقواله أولاً ثم عن أفكاره ثانياً، لأن البشر من حوله يسمعون ما يقوله، ويحكمون عليه وعلى نعمة الله التي فيه من كلامه، «لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تُدان» (مت 12: 37). أما فكر قلبه فهو بينه وبين الرب. ولما كان الله يعلن عن ذاته في تصرفات المؤمنين، يطلب المرنم رضى الرب على المسموع الظاهر، ولو أنه نتاج المختفي في الباطن، فمن فضلة القلب يتكلم الفم (مت 12: 34). لذلك قال الله: «أحوِّل الشعوب إلى شفة نقية ليدعوا كلهم باسم الرب، ليعبدوه بكتف واحدة.. بقية إسرائيل لا يفعلون إثماً، لا يتكلمون بالكذب، ولا يوجد في أفواههم لسان غش» (صف 3: 9، 13).

عندما طلب الله من الملك سليمان أن يطلب ما يريد، جاءت طلبته تعبيراً عن فكر قلبه، لأن سليمان كان يفكر في الخدمة المنتظرة منه. وعندما طلب النبي أليشع نصيب اثنين من روح إيليا كان يرى المسؤولية التي سيُكلَّف بها. فإذا عُرض علينا أن نطلب ما نريد، فهل نقول: «لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضيةً أمامك يا رب، صخرتي ووليي»؟

وفي هذه الطلبة يصف المرنم الله بصفتين:

(1) **«صخرتي»** الذي أتكل عليه فينصرني ويرفعني، فلا أغوص في وحل الخطية.

(2) «**وليّي**» أي ولي أمري، والمشرف عليَّ، وصاحب السلطان على حياتي، والذي ينصرني فأنتصر على متاعبي وخطاياي.

إنه شرفٌ عظيم أن يشترك الإنسان مع الطبيعة ومع الشريعة في تقديم شهادة واضحة لله وسط المجتمع الذي يعيش فيه. فهل لك مثل هذه الشهادة اللامعة لله؟ وهل من يرى عملك يمجد أباك الذي في السماوات؟

المزمور العشرون

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1لِيَسْتَجِبْ لَكَ الرَّبُّ فِي يَوْمِ الضِّيقِ. لِيَرْفَعْكَ اسْمُ إِلَهِ يَعْقُوبَ. 2لِيُرْسِلْ لَكَ عَوْناً مِنْ قُدْسِهِ وَمِنْ صِهْيَوْنَ لِيَعْضُدْكَ. 3لِيَذْكُرْ كُلَّ تَقْدِمَاتِكَ وَيَسْتَسْمِنْ مُحْرَقَاتِكَ. سِلاَهْ. 4لِيُعْطِكَ حَسَبَ قَلْبِكَ وَيُتَمِّمْ كُلَّ رَأْيِكَ. 5نَتَرَنَّمُ بِخَلاَصِكَ وَبِاسْمِ إِلَهِنَا نَرْفَعُ رَايَتَنَا. لِيُكَمِّلِ الرَّبُّ كُلَّ سُؤْلِكَ.

6الآنَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ مُخَلِّصُ مَسِيحِهِ. يَسْتَجِيبُهُ مِنْ سَمَاءِ قُدْسِهِ بِجَبَرُوتِ خَلاَصِ يَمِينِهِ. 7هؤُلاَءِ بِالْمَرْكَبَاتِ وَهؤُلاَءِ بِالْخَيْلِ - أَمَّا نَحْنُ فَاسْمَ الرَّبِّ إِلهِنَا نَذْكُرُ. 8هُمْ جَثُوا وَسَقَطُوا أَمَّا نَحْنُ فَقُمْنَا وَانْتَصَبْنَا. 9يَا رَبُّ خَلِّصْ. لِيَسْتَجِبْ لَنَا الْمَلِكُ فِي يَوْمِ دُعَائِنَا.

دعاءٌ للملك بالنصر

المزمور العشرون دعاءٌ ترفعه الأمة كلها إلى الله، مُصليةً من أجل الملك، تطلب من الله أن ينصره وأن يستجيب صلاته. وهو مرتبط بمزمور 21 الذي يرفع فيه الملك صلاة شكر لأجل الأمة. ويتركز الفكر في المزمورين على الملك وانتصاره على الأعداء، باعتباره ممثّل الله وممثل الشعب.

كان الملك قبل الدخول في حرب يقدم الذبائح لله ويسلّم أمره له. وكان الشعب أثناء تقديمها يرنم مزمور 20 تعبيراً عن إيمانهم القوي بالرب. أما مزمور 21 فكانوا يرنمونه بعد نهاية الحرب، ليشكروا الرب الذي أعطى النصر، وليعبّروا عن ثقتهم في أنه سيظل ينصرهم في كل موقعة قادمة.

ويمكننا أن نصلي كلمات هذا المزمور من أجل ملكوت الله، قائلين: «ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض». فكما أن ملائكة السماء دوماً مستعدون أن ينفذوا أوامرك بدون اعتذار ولا إبطاء، فلتحقّق الأرض كلها رغباتك بغير تردد.

ويمكننا أن نصلي كلمات هذا المزمور كعائلة ترفع رب الأسرة أمام عرش النعمة، كما يمكننا أن نصليه ككنيسة من أجل الراعي، ويمكننا أن نصليه كعاملين في هيئة نطلب أن يبارك الرب رئيس العمل، ويمكننا أن نصليه من أجل رئيس البلاد لنقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار (1تي 2:2). فالمزمور صلاة من أجل كل مسؤول في موقع مسؤوليته. ولو أننا صلينا من أجل كل المسؤولين سيستجيبنا الرب من هيكل قدسه ويعطي بركة عظيمة للمصلّين ولمن يصلّون لأجلهم، كما قال المسيح لتلاميذه: «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو 16: 24).

في هذا المزمور نجد:

أولاً - الشعب كله يصلى لأجل الملك (آيات 1-5)

ثانياً - قائد الترنيم يؤكد استجابة الصلاة (آيات 6-8)

ثالثاً - صلاة ختامية من الشعب كله (آية 9)

أولاً - الشعب كله يصلي لأجل الملك

(آيات 1-5)

يرفع الشعب للّه خمس طلبات من أجل الملك:

1 - طلب الرفعة وقت الضيق: «ليستجب لك الرب في يوم الضيق. ليرفعك اسم إله يعقوب» (آية 1). يدعو كل الشعب معاً بفكر واحد وصوت واحد في ترنيمة متجانسة متوافقة

طالبين الاستجابة. ومن هذا نتعلم أن الصلاة إجراءٌ وقائي. فلا يجب أن ننتظر حتى تأتي الضيقة لنصلي، بل نصلي من قبل أن يجيء الضيق ليجنّبنا الله المكاره! فصلاة اليوم تبارك الغد. صحيحٌ أن الله يشجعنا أن نطلبه في يوم الضيق (مز 50: 15). ولكن هذا لا يعني أننا نطلبه وقت الضيق فقط.

ويصلي كثيرون كردود أفعال لما يواجههم من تحديات الحياة، لكن سعيد هو الإنسان الذي يصلي يومياً وباستمرار، جاعلاً شعاره «أما أنا فصلاة» (مز 109: 4). واثقاً من قول المسيح: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو 15: 5)، فيستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويه (في 4: 13). مرَّ المسيح مخلّصنا بوقت حزن، فجعله وقت صلاة، وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض، وظهر له ملاك من السماء يقويه، وانتصر فتمّم خلاصنا (لو 22: 43، 44).

ويطلب الشعب أن يرفع «إلهُ يعقوب» ملكَهم فوق الصعاب والأعداء، فلا يصدم رجله بحجر (مز 91: 12) ويقولون إن الذي يرفع هو «اسم إله يعقوب». والاسم يدل على كل صفات الشخص. فالله هو الإله الفعّال في التاريخ، الذي قال عنه يعقوب: «استجاب لي في يوم ضيقتي، وكان معي في الطريق الذي ذهبتُ فيه» (تك 35: 3). ولا بد أن الله سيفعل الشيء نفسه للملك الذاهب للحرب. ولا يزال اسم الرب هو البرج الحصين الذي يركض إليه الصدّيق ويتمنَّع (أم 18: 10).

و«إله يعقوب» هو إله العهد الذي وعد يعقوب بالنجاة والبركة (تك 28: 12-15) ولا بد أنه يحقق وعوده لنسل يعقوب.

عندما ارتفع إيليا إلى السماء، تساءل تلميذه أليشع: «أين هو الرب إله إيليا؟» ثم ضرب أليشع الماء فانفلق إلى هنا وهناك، فعبر (2مل 2: 14) بعد أن فتح الرب أمامه طريقاً لا يقدر أحدٌ أن يغلقه. فما أسعد من يستعين بإله آبائه، كما قال بولس لتيموثاوس: «أتذكَّر الإيمان العديم الرياء الذي فيك، الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقنٌ أنه فيك أيضاً» (2تي 1: 5).

2 - طلب العون والتعضيد من مكان العبادة: «ليرسل لك عوناً من قدسه، ومن صهيون ليعضدك» (آية 2). وكأنهم يقولون للملك: أيها القائد، لقد مثلتَ في بيت الله عابداً. ركعتَ أمامه، وانتظرت بركته، فلا بد أن تجيئك البركة من مقادسه.

عندما نذهب إلى بيت الرب نجد البركة، فنقول: «فرحتُ بالقائلين لي: إلى بيت الرب نذهب» (مز 122: 1). ونعمل بالوصية الرسولية «غير تاركين اجتماعنا.. بل واعظين بعضنا بعضاً، وبالأكثر على قدر ما ترون ترون اليوم يقرُب» (عب 10: 25).

3 - طلب قبول العبادة: «ليذكر كل تقدماتك ويستسمن محرقاتك» (آية 3). بمعنى أن الملك الذي رفع صلواته لله في بيت الله، قدّم أيضاً أفضل ما عنده من أغنام سمينة وصحيحة كقرابين وتقدمات لله. وعلى المذبح أحرق كل الشحم، أفضل أجزاء الذبيحة. وهم يدعون الله أن يقبل قرابين الملك، التي قصد بها أن يتقرب إلى الله (هدف القربان القُرب من الله). فلينظر الرب إلى الملك وقربانه بعين الرضا، لأنه نفذ الوصية الإلهية التي تقول: «ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره، في عيد الفطير، وعيد الأسابيع، وعيد المظال. ولا يحضروا أمام الرب فارغين. كل واحد حسبما تعطي يده كبركة الرب إلهك التي أعطاك» (تث 16:16، 17).

ونحن اليوم نحتمي في كفارة الذبيحة العظمى، ذبيحة المسيح حمل الله الذي يرفع خطية العالم. وهو المحرقة الذي احترق ليفدينا، وهو يقول: «أنا عطشان» (يو 19: 28). «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» (مت 27: 46) لأنه يريد أن يكمل خلاصنا. وعندما أكمله قال: «قد أُكمل» (يو 19: 30) **4 – طلب النجاح:** «ليعطك الرب حسب قلبك، ويتمم كل رأيك» (آية 4). قال المسيح: «إن سألتم (طلبتم) شيئاً باسمي فإني أفعله» (يو 14:14). «وهذه الثقة التي لنا عنده: أنه إن

طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا» (1يو 5: 14). ليعطك حسب قلبك لأن رغبات قلبك تشبه رغبات قلبه، ولأن رأيك متَّفق مع رأيه. قال القديس أغسطينوس: «عندما تفعل مشيئة الله كأنها مشيئتك، يفعل الله مشيئتك كأنها مشيئته» فإن «شهوة الصدّيقين تُمنح» (أم 10: 24).

فلنراجع آراءنا وأحلامنا ورؤانا بالنسبة لحياتنا الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والروحية، ونسأل إن كانت متوافقة مع مشيئة الله، عالمين أن هذا التوافق هو ضمان الاستجابة.

5 - طلب الفرح: «نترنم بخلاصك وباسم إلهنا نرفع رايتنا. ليكمّل الرب كل سؤلك» (آية 5). الخلاص الذي نترنم به هو الفداء الكامل الذي أكمله المسيح على الصليب. لذلك نصلي أن يرفع الله راية صليب محبته، ليدرك المؤمنون أكثر وأكثر معنى الحب الإلهي، فيجددون عهودهم مع الله باستمرار، لأن محبة المسيح تحصرهم (2كو 5: 14). فيحبونه لأنه هو أحبهم أولاً (1يو 4: 19).

وكان بنو إسرائيل يقصدون بالخلاص أولاً وقبل كل شيء الخلاص من العدو المحارب، فأنقذهم الله من الخطر، واستجاب طلباتهم الخمس من أجل ملكهم، فرفعوا آيات الشكر لسامع الصلاة. وكم نحتاج أن نتعلم الشكر! كثيراً ما ننجح، ونفرح بنجاحنا بدرجة تنسينا الأستاذ الذي علّمنا، أو تنسينا والدينا الذين تعبوا معنا. كثيراً ما نسينا أن نشكر ونحن صغار، وكثيراً ما نستمر صغاراً في روحانياتنا عندما نفرح بالعطية وننسى معطيها، ونحتفل بالانتصار وننسى الناصر!

«ليكمل الرب كل سؤلك (أيها الملك)». بمعنى: لتتحقق الطلبات الخمس التي طلبناها لك منه، فتستمر تنتظر خلاص الرب قائلاً: «انتظاراً انتظرت الرب فمال إليّ وسمع صراخي» (مز 40: 1).

ثانياً - قائد الترنيم يؤكد استجابة الصلاة

(آيات 6-8)

قدم الملك ذبائحه للرب، ورفع كل الشعب طلباتهم الخمس إلى الله من أجل ملكهم. وكان إيمانهم ينتظر الاستجابة الأكيدة، فالإيمان يرى ما لا يراه الناس. فقام قائد جوقة الترنيم يرتل، مؤكداً للشعب كله أن الله سمع لهم:

1 - تأتي الاستجابة من عند الله القادر: قال القائد: «الآن عرفتُ أن الله مخلّص مسيحه. يستجيبه من سماء قدسه، بجبروت خلاص يمينه» (آية 6). هذا ترنيمٌ منفرد من قائد جوقة الترنيم، أو من أحد الكهنة، يؤكد فيه للشعب أن الله استجاب صلاتهم. والمقصود بلقب «مسيح» هنا الملك الممسوح بالدهن المقدس لتخصيصه وتكريسه للقيام بخدمة معيّنة كلّفه الله بها (2كو 1: 21). وقد أوصت شريعة موسى بمسح أشخاص وأماكن وأوانٍ (خر 40: 9 وعد 7: 1، 10) وكانوا يمسحون الكهنة (خر 28: 41) والأنبياء (1أخ 16: 22) والملوك (2صم 19: 10). فعندما يقول المرنم إن «الرب مخلّص مسيحه» يقصد أن الرب يخلّص كل إنسان يكلّفه بالقيام بخدمة معينة، فإنه لم يتجند أحدٌ بنفقة نفسه (1كو 9: 7).

ولم أرَ طيلة حياتي خادماً مكرَّساً لله لم يحسن الرب إليه إحساناً كاملاً. ولست أقصد الواعظ فقط، بل كل من يؤدي لله خدمةً مهما كانت بسيطة، مثل تقديم كأس ماء بارد لنفس عطشانة (مت 10: 42) أو تنظيف الكنيسة. فلا يمكن أن يكون الله مديوناً لإنسان. وأدعوكم أن تؤدّوا لله خدمة من قلوبكم، مهما كانت بسيطة، وسترون كيف يعطيكم بركة حقيقية، وكيف «يستجيبكم من سماء قدسه» بخلاصٍ شامل «بجبروت خلاص يمينه». فخلاص الله خلاص جبار من الخطية. «إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيَضُّ كالثلج، إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» (إش 1: 18). وخلاصه خلاص جبار من مكايد الأعداء مهما كانت خبيثة. فلا بد أن يرتدوا ويسقطوا، ولا بد أن ينجو المؤمن.

2 - هناك مصدران للقوة: «هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل، أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر» (آية 7). ذكر القائد مصدرين للقوة: أحدهما استعان به العدو، والثاني استعان به شعب الرب. اعتمد العدو على مركباته وخيله لأنه يراهم، كما فعل فرعون (خر 14) وكما فعل سنحاريب ملك آشور (2مل 19: 23). أما شعب الرب فاعتمدوا على الرب، وهم يذكرونه دائماً لأنه الأمل الوحيد الذي لا يخزى منتظروه، حتى لو لم تره عيون أجسادهم (إش 49: 23). وهذا ما قاله داود لجليات: «أنت تأتي إليّ بسيفٍ وبرمح وبترس، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيّرتهم» (1صم 17: 45). وهو ما أوصى الله به شعبه على فم موسى: «عندما تقربون من الحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب ويقول لهم: اسمع يا إسرائيل، أنتم قربتم اليوم من الحرب على أعدائكم. لا تضعف قلوبكم. لا تخافوا ولا ترتعدوا، ولا ترهبوا وجوههم، لأن الرب إلهكم سائر معكم لكي يحارب عنكم أعداءكم ليخلّصكم» (تث 20: 2-4). وقد يكون أعداء الرب في موقف المنتصر بينما شعبه منهزمين، لكن هذا لن يستمر، فلا بد من انتصار الرب وكل من ينتمون إليه.

3 - هناك نتيجتان مختلفتان للاستناد على القوتين المختلفتين: «هم جثوا وسقطوا، أما نحن فقمنا وانتصبنا» (آية 8). يبدو أن وجوه المؤمنين سقطت من العدو، أو ربما سقطوا فعلاً أمام العدو، فأنقذهم الرب، فقاموا بعد سقوط، وانتصبوا بعد انحناء. لا بد أن ترفع جماعة الرب رأسها قائلة: «أما أنت يا رب فترسٌ لي. مجدي ورافع رأسي» (مز 3:3).

قد ينجح الخاطئ في البداية، لكن النصرة النهائية هي للرب ولشعبه. نعم، هناك صليب، لكن لا بد من قيامة وارتفاع، فلا يمكن أن يكون الصليب هو النهاية.

ثالثاً - صلاة ختامية من الشعب كله

(آية 9)

صلى الشعب للملك السماوي من أجل ملكهم الأرضي، وجاءهم التأكيد أن الملك السماوي أصغى وسمع، فعادوا يرتلون من جديد: «يا ربُّ خلِّص. ليستجِبْ لنا الملك في يوم دعائنا» (آية 9). لقد رفعوا لله طلبات لأجل الملك، وهم يعلمون أن الملك الحقيقي هو الرب.

حسناً صلّينا من أجل رب الأسرة، لكن يجب أن ندرك أن رب أسرتنا الأعظم هو أبونا السماوي. وحسناً رفعنا طلبنا من أجل راعي كنيستنا، لكن لنضع نصب أعيننا أن راعي رعاتنا العظيم هو الرب يسوع المسيح. وحسناً دعَوْنا ليبارك الرب صاحب العمل، لكننا نعلم أن رئيس عملنا الذي نخدمه هو الله، ومنه ننال الجزاء.

«ليستجب لنا الملك في يوم دعائنا» فيبارك قائدنا ويبارك عملنا.